

**استراتيجية المؤسسة البابوية في التعامل مع الإسلام
في القرن الثالث عشر الميلادي
دراسة تحليلية ونقدية**

إعداد

د/ عائض بن سعد الدوسري

أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية- كلية التربية
جامعة الملك سعود- الرياض- المملكة العربية السعودية

من ١٣١ إلى ٢٣٠



**Papal Institution's Strategy in Dealing with
Islam in the 13th Century AD
An Analytical And Critical Study**

Prepared by

Dr. Aaidh bin Saad Al-Dosari

**Associate Professor, Department Of Islamic
Studies, College Of Education, King Saud
University, Riyadh, Kingdom Of Saudi Arabia**



استراتيجية المؤسسة البابوية في التعامل مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي:

دراسة تحليلية ونقدية.

عائض بن سعد الدوسري

قسم الدراسات الإسلامية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: ayedh1_d@hotmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث دراسة استراتيجية المؤسسة البابوية الكاثوليكية في تعاملها مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، بوصفها فاعلاً دينياً وسياسياً مؤثراً في السياق الأوروبي في العصور الوسطى. وتكشف هذه الدراسة عن الأبعاد اللاهوتية والسياسية التي وجهت مواقف المؤسسة البابوية من الإسلام، ويبرز كيف سلكت المؤسسة البابوية في تلك الحقبة مسارين متوازيين في تعاملها مع الإسلام: مسار (القوة الخشنة) الذي تجلّى في الحروب الصليبية، وحروب الاسترداد، ومحاكم التفتيش، والتحالفات العسكرية مع المغول، ومسار (القوة الناعمة) الذي يتمثل في إنشاء تنظيمات الرهينة المختلفة، وتركيز نشاطها على التنصير، وعلى علم الدفاع العقدي الذي يهدف إلى بناء منظومة فكرية دفاعية، مما يتطلب تأسيس معاهد لتعلم اللغة العربية بهدف مناقشة المسلمين والتأثير فيهم وإقناعهم. وينطلق البحث من فرضية مركزية مفادها أن المؤسسة البابوية لم تكتفِ بالتعامل مع الإسلام بالسبل العسكرية، بل سعت أيضاً إلى بناء مشروع معرفي ومؤسسي شامل، ساهم لاحقاً في نشأة الاستشراق. كما يوضح البحث أن تلك الاستراتيجية كانت جزءاً من رؤية المؤسسة البابوية تعتبر الإسلام تحدياً دينياً وجغرافياً يتطلب استجابة. ويعتمد البحث على تحليل تاريخي نقدي لمجموعة من الوثائق والقرارات والممارسات الصادرة عن المؤسسة البابوية، ويضعها ضمن سياقها السياسي والديني في القرن الثالث عشر الميلادي، لتكوين تصور دقيق حول أهداف المؤسسة البابوية وآلياتها في تعاملها مع الإسلام. وتخلص الدراسة إلى أن فهم العلاقة التاريخية بين الإسلام والكنيسة، لا سيما في هذه الحقبة الحرجة، يشكل مدخلاً ضرورياً لوعي حضاري يسهم في بناء حوار حقيقي بين الأديان، يقوم على المصارحة التاريخية والفهم المتبادل.

الكلمات المفتاحية: المؤسسة البابوية؛ الحروب الصليبية؛ الكنيسة الكاثوليكية؛ محاكم التفتيش؛ التنصير؛ الاستراتيجية؛ الاستشراق.

The Papal Institution's Strategy In Dealing With Islam In The
Thirteenth Century AD: An Analytical And Critical Study.

Ayedh Saad Aldosari

Department Of Islamic Studies, King Saud University, Riyadh,
Kingdom Of Saudi Arabia.

Email: ayedh1_d@hotmail.com

Abstract:

This study explores the strategic approach adopted by the Catholic Papal institution in its engagement with Islam during the 13th century CE, viewing it as a significant religious and political actor within the medieval European context. The research reveals the theological and political dimensions that shaped the Papacy's position toward Islam, highlighting how the institution pursued two parallel tracks in its dealings: the path of hard power, manifested in the Crusades, the Reconquista, the Inquisition, and military alliances with the Mongols; and the path of soft power, which was represented by the establishment of various monastic orders focused on missionary work and the development of Christian apologetics aimed at constructing a defensive intellectual framework. This effort necessitated the establishment of academic institutions for the study of Arabic, with the aim of engaging Muslims in dialogue, influencing their beliefs, and persuading them of Christian doctrines. The research is grounded in a central hypothesis: that the Papal institution did not rely solely on military means in its confrontation with Islam but also sought to construct a comprehensive intellectual and institutional project, which later contributed to the emergence of Orientalism. The study further demonstrates that this strategy stemmed from a Papal vision that perceived Islam as a religious and geopolitical challenge requiring a calculated response. Employing a critical historical analysis of official documents, decisions, and practices issued by the Papal authority, the study contextualizes these actions within their 13th-century religious and political frameworks. It aims to provide an accurate understanding of the Papacy's objectives and mechanisms in dealing with Islam. The study concludes that understanding the historical relationship between Islam and the Church—particularly during this pivotal period—is essential for cultivating a civilizational awareness that contributes to building genuine interfaith dialogue grounded in historical transparency and mutual understanding.

Keywords: Papal Institution; Crusades; Catholic Church; Inquisitions, Missionization; Strategy; Orientalism.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لم تكن العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي الكاثوليكي علاقةً عابرةً أو هامشيّةً في التاريخ الوسيط، بل كانت علاقةً محوريةً طبعتها تجاذبات كبرى، تركت آثارها العميقة على الذاكرة الدينيّة والثقافيّة لكلا الجانبين. وقد شكلت المؤسسة البابويّة -بصفتها المرجعية الدينيّة والسياسيّة للعالم الكاثوليكي- أحد أبرز الفاعلين في هذه العلاقات، إذ اضطلعت بأدوار قياديّة في إدارة العلاقة مع الإسلام عبر استراتيجيّة راسخة ووسائل متعددة، وحددت تلك الاستراتيجية التي رسمتها المؤسسة البابويّة صورة الحقبة الزمنيّة، التي امتدت إلى قرون طويلة، شكل اللقاء بين الإسلام والعالم الكاثوليكي، وطريقة التعامل.

وإنّ القرن الثالث عشر الميلادي يمثل ذروة هذا اللقاء، حيث شهد تبلوراً واضحاً لاستراتيجيّة المؤسسة البابوية في تعاملها مع الإسلام، في ظل ظروف عالميّة مضطربة وقلقة، شملت الغزو المغولي من الشرق، والحملات الصليبيّة، وحروب الاسترداد في الأندلس، وتفكك الداخل الإسلامي، والصراعات بين المسلمين أنفسهم، بما أتاح للمؤسسة البابوية فرصة سانحة لتفعيل تلك الاستراتيجية بوسائلها المختلفة في تعاملها مع المسلمين ومع الدين الإسلامي، بحيث تزامن في هذا القرن تحديداً توظيف "القوة الخشنة" في ساحات المعركة، و"القوة الناعمة" في ساحة الفكر والمناظرة والاستقطاب، ما يجعله لحظة مهمة وكاشفة عن رؤية المؤسسة البابوية في إدارتها علاقتها وتعاملها مع الإسلام. ومن ثمّ فإنّ دراسة هذه الاستراتيجية لا تتبع فقط من أهميّة أحداث تلك الفترة، بل أيضاً من حضورها المستمر في تشكيل الوعي الغربي المعاصر تجاه الإسلام. فبعض التصورات النمطيّة والخطابات الحديثة تكرر ما تجذر في تلك الأزمنة البعيدة بوصفها اللحظات التأسيسيّة. ولذلك، فإن العودة إلى تحليل علاقة المؤسسة البابوية مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، تعدّ شرطاً لفهم عميق لآليات التوتر التاريخي، كما أنها تمثل ضرورة معرفيّة في سياق تفعيل الدعوات الراهنة للحوار والتفاهم بين الأديان.

إنّ مشكلة البحث تتمثل في محاولة الكشف عن الاستراتيجية التي اتبعتها المؤسسة البابويّة في تعاملها مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، وتحليل الوسائل المستخدمة ضمن مساري القوة الخشنة والقوة الناعمة، وتحديد دوافعها وأهدافها وسياقاتها الدينيّة والسياسيّة، ومدى تأثيرها في العلاقة بين الجانبين الإسلامي والمسيحي.

ويهدف هذا البحث إلى تحليل ونقد الاستراتيجية التي اعتمدتها المؤسسة البابوية في تعاملها مع الإسلام في تلك الحقبة من خلال تتبع وسائلها، وتفكيك بنيتها، وبيان طبيعتها الدينية والسياسية والاقتصادية، وتأثيراتها في التاريخين الإسلامي والمسيحي، مع الإشارة إلى استمرار حضور هذه الاستراتيجية في الخطاب المؤسسة البابوية المعاصر، وأهميته تجاوزه لتفعيل الحوار البناء واللقاء الحضاري.

وتتبع أهمية هذا البحث من عدة اعتبارات، أبرزها: أنه يتناول فترة تاريخية مهمة تُعد من أكثر الحقب تأثيراً في العلاقة بين العالم الإسلامي والمسيحي، ويكشف عن الأدوار المتشابكة للدين والسياسة في بناء الاستراتيجية البابوية، ويسهم في تفسير الجذور التاريخية لبعض مظاهر التوتر والعداء تجاه الإسلام، ويُقدم مادة تحليلية ونقدية تساعد في بلورة فهم أعمق وأكثر توازناً للتاريخ المشترك بين الطرفين، مما يساهم في تعزيز الحوار الحضاري والواعي.

أمّا فيما يتعلق بالدراسات السابقة، فقد تناولت دراسات متعددة الحروب الصليبية، أو الاستشراق، أو التنصير، أو الحوار بين الأديان، لكن لم أقف على دراسات تجمع بين كل هذه المداخل في قراءة شاملة لاستراتيجية المؤسسة البابوية في لحظة تاريخية محددة هي القرن الثالث عشر الميلادي، مع أهمية الربط بين الأبعاد المتكاملة للمشروع البابوي (اللاهوتية والعسكرية والاقتصادية). ولذا، فإنّ هذا البحث يمثل إضافة علمية في سد هذه الفجوة من هذه الحيثية.

وينطلق البحث من عدد من الأسئلة المركزية: ما أبرز ملامح الاستراتيجية التي اعتمدتها المؤسسة البابوية في تعاملها مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي؟ وما مسارات تلك الاستراتيجية؟ وما الوسائل التي استخدمتها المؤسسة في إطار كل مسار من المسارات تلك؟ وما مدى تأثيرها؟ وكيف وظفتها المؤسسة البابوية؟ وما أهدافها المعرفية، والعقدية، والسياسية، والاقتصادية؟ وما ظروف العالم الإسلامي التي بلورت فيه تلك الاستراتيجية في تلك الحقبة؟ وما انعكاسات هذه الاستراتيجية على صورة الإسلام في الوعي المسيحي الوسيط؟ وإلى أي مدى استمر أثر هذه الرؤية في العصر الحديث؟

ويعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، في تتبع الوقائع والقرارات والسياسات البابوية المتعلقة بالإسلام خلال القرن الثالث عشر الميلادي. كما يستعين بالمنهج النقدي في قراءة وتفكيك الخطابات البابوية، وتحليل بنيتها ودلالاتها، واستكشاف المضمرات اللاهوتية والسياسية الكامنة فيها. وقد تمّ توظيف مصادر أولية، من نصوص المجامع الكنسية، والباباوات، والوثائق

الغربية، بالإضافة إلى الدراسات الحديثة التي تعالج موضوع العلاقة بين الكنيسة والإسلام.

ومن أجل هذا، تأتي هذه الدراسة التي بعنوان: (استراتيجية المؤسسة البابوية في التعامل مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي- دراسة تحليلية ونقدية). وقد تم تقسيمها إلى:

-المقدمة، وتتضمن: مشكلة البحث، وأهدافه، وأهميته، والدراسات السابقة، وأسئلة البحث، ومنهجه، ومكوناته.

-المبحث الأول: استراتيجية المؤسسة البابوية الخشنة في التعامل مع الإسلام. وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: الحروب الصليبية.
- المطلب الثاني: حروب استرداد الأندلس.
- المطلب الثالث: التحالف مع المغول.
- المطلب الرابع: محاكم التفتيش.
- المبحث الثاني: استراتيجية المؤسسة البابوية الناعمة في التعامل مع الإسلام. وفيه مطالبان:
- المطلب الأول: تنظيمات الجماعات الرهبانية (النشاط التنصيري وعلم الدفاع الجدلي).
- المطلب الثاني: التقارير والأبحاث للمشاريع المقترحة للتعامل مع الإسلام.
- الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.
- الفهارس.

وختاماً، فإنّ هذا البحث يأمل من خلال الدراسة التحليلية والنقدية أن يسهم في تعميق الفهم الموضوعي للتاريخ المشترك بين الإسلام والمؤسسة البابوية، والوعي بال جذور القديمة للرؤى المعاصرة للأحكام المسبقة والتصورات المشوّهة. كما يطمح هذا البحث أن يُقدم مادة معرفية تساعد على إدراك تعقيدات تلك المرحلة التاريخية، وتكشف عن تشابك الدوافع والمحركات المختلفة ومآلاتها، بما يعزز الوعي النقدي، ويغذي الخطاب الحواري الهادف والبناء، القائم على الفهم والوعي والمعرفة. فالرجوع إلى الماضي، في منظور هذا البحث، ليس اجتراحاً لجراحه، بل سبيل إلى تجاوزها بوعي وبصيرة وحكمة، في محاولة لتأسيس وعي تاريخي موضوعي يمكن أن يساعد في تجاوز الموروثات السلبية، ويفتح آفاقاً جديدة للحوار الحضاري المتوازن بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

المبحث الأول:

استراتيجية المؤسسة البابوية الخشنة في التعامل مع الإسلام

الحوادث التي جرت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كانت تُعتبر الذروة السامقة لما يُعرف ويُسمى بالقرون الوسطى^(١). وهي فترة حرجة احتل تأثير الكنيسة الكاثوليكية فيها مكانة واسعة وحيوية، ليس فقط داخل أوروبا، بل وبالعالم المتصل بها وخصوصاً العالم الإسلامي. يقول المؤرخ الغربي ليونيل جان شيني: "تاريخ القرون الوسطى هو، إلى حد كبير، تاريخ الكنائس"^(٢). وكانت الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر الميلادي، وما قبله، تعيش الفترة التي كانت فيها غارقة في الحروب ضد المسلمين، وضد المسيحيين الهراطقة، وضد القياصرة المتملمين من سلطانها، إذ بدا لها أن السلاح والعنف هو الحل الوحيد والحاسم في مواجهة من يعرقل جموحها ويحد من أطماعها الدينية والدنيوية^(٣). وكان الناس في ذلك العصر طوع أم رجا رجال الدين من البابوات والأساقفة والرهبان والوعاظ، فما هو إلا أن يصدر الأمر عنهم حتى يسرع الناس ويهرعون إلى التجنيد وحشد الجيوش^(٤)، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية هي المسيطرة والحاكمة على القرون الوسطى، وكانت هي مركز حياة الكافة من الخاصة والعامة في أوروبا، فهي مرشدهم الديني، وسكينة قلوبهم، والمفكر نيابة عن عقولهم^(٥)، وقد بلغت سلطة المؤسسة البابوية، في فترات عديدة وطويلة في تاريخ أوروبا المسيحية، إلى درجة السيطرة الفعلية على مجمل حياة الناس وشؤونهم الدينية والدنيوية^(٦). وتميزت تلك العصور بأن رجال الدين كانوا يمارسون تأثيراً خطيراً وكبيراً في الحياة العامة، الدينية والسياسية، فقد درجت المؤسسة البابوية على تعيين واستخدام الأساقفة أصحاب القدرات العلمية والمهارت في أهم الوظائف وأكثرها تأثيراً عند الملوك والأمراء في أوروبا، كمستشارين ووكلاء ووزراء، يباشرون اختصاصات الحُكّام وأصحاب السلطة^(٧). ولهذا، فإن الكنيسة الكاثوليكية بصورة عامة والمؤسسة البابوية على وجه التحديد وبالدرجة الأولى هي المسؤولة السياسية والدينية والأخلاقية عما حصل من

(١) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٩.

(٢) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٦.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٢٩٥.

(٤) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٦-١٣٧.

(٥) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٤٢ و ١٥٦-١٥٧.

(٦) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٢٠٧.

(٧) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٧ و ١٥٦.

حروب ومآس وكوارث ومجاعات حصلت في أوروبا نفسها، أو حلتّ بالعالم الإسلامي وبالمسلمين.

فقد شكّل التعامل مع الإسلام أساساً مركزياً في سياسات واستراتيجيات المؤسسة البابوية خلال القرن الثالث عشر الميلادي، حيث تبنت الكنيسة الكاثوليكية جملة من الإجراءات المتنوعة في محاولة منها للتجاوب مع التأثير والجاذبية الدينية للدين الإسلامي، ولقوة المسلمين العسكرية، والروحية، والثقافية. ويبدو هذا القرن بالذات من أكثر الفترات التاريخية زخماً من حيث النشاط البابوي المنظم فيما يتعلق بالمسلمين، سواء في المشرق الإسلامي أو في شبه الجزيرة الإيبيرية، بل وحتى في ساحات الفكر والمناظرة.

ففي القرن الثالث عشر الميلادي اتخذت المؤسسة البابوية الكاثوليكية استراتيجية واضحة المعالم في تعاملها مع الإسلام بوصفه تحدياً يحتاج إلى استجابة مناسبة، وهذه الاستراتيجية تكشف عن حقيقة موقف المؤسسة البابوية من الدين الإسلامي ومن المسلمين وبلدانهم. وقد وهذه الاستراتيجية سلكت مسارين اثنين، ولتحقيق نجاح كل مسار تم تطبيق جملة من الوسائل المناسبة لكل مسار في سبيل تحقيق مشروعها الكلي في التعامل مع الإسلام، وتميزت الوسائل المتبعة بتنوعها من حيث الطبيعة والغاية. فالمسار الأول الذي سلكته المؤسسة البابوية في تعاملها مع الإسلام هو مسار القوة الخشنة (Hard power)، واعتمدت على وسائل مناسبة لتحقيقه، ومن أبرزها: الحروب الصليبية وحروب الاسترداد التي حشدت لها الموارد والأتباع باسم الدفاع عن الإيمان، ومحاكم التفتيش التي مارست الرقابة والعقاب على من يُشتبه في تعاطفه مع الإسلام أو التأثير به، إضافة إلى محاولات التحالف الاستراتيجي مع القوى غير المسيحية -كالمغول- في سبيل تطوير العالم الإسلامي من أطرافه. أمّا المسار الآخر، فهو مسار القوة الناعمة (soft power) باعتبارها وسيلة أكثر استدامة وتأثيراً على المدى الطويل، وذلك من خلال تفعيل مجموعة وسائل ملائمة لطبيعة هذا المسار، كعمليات التنصير المنظمة، وتطوير علم الدفاعيات (apologetics) الذي يهدف إلى تحصين الإيمان المسيحي والتشكيك في العقائد المخالفة، فضلاً عن إنشاء معاهد علمية متخصصة لتعليم اللغة العربية بغرض فهم النصوص الإسلامية وتكوين نخب قادرة على الحوار والمناظرة والنقاش والجدال مع المسلمين بلغتهم العربية، وهو ما سيكون الأرضية الأساسية التي نبتت فيها البذرة الأولى لدراسة الإسلام والشرق بصورة منظمة ومؤسسية، وهو ما سيُعرف لاحقاً بالاستشراق.

وإنَّ هذا البحث يهدف إلى بيان الاستراتيجية التي تبنتها المؤسسة البابوية في تعاملها مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، من خلال هذين المسلكين المتكاملين -مسلك القوة الخشنة ومسلك القوة الناعمة- وما يعكسه ذلك من رؤية شاملة للمؤسسة البابوية تجاه الإسلام كدينٍ منافسٍ يمثل تحدياً للنفوذ الكنسي، دينياً وجغرافياً.

ومسلك القوة الخشنة هو مسلكٌ يعتمد على الوسائل التي تقوم على الإكراه أو التهديد أو القوة المباشرة لفرض إرادة طرفٍ ما على طرفٍ آخر، وتستخدم هذه الوسائل من أجل تحقيق أهدافٍ سياسيةٍ أو دينيةٍ. وأهم تلك الوسائل التي وظفتها المؤسسة البابوية ضمن مسلك القوة الخشنة كاستراتيجية في تعاملها مع الإسلام، ما يأتي:

المطلب الأول: الحروب الصليبية.

في العصر الحديث أصبحت سمعة تاريخ الكنيسة الكاثوليكية مُرتبطة بذاكرة الحروب الصليبية، التي تربطها عند الباحثين المعاصرين بالتعصب والإرهاب، كما يؤكد ذلك عالم اللاهوتي المسيحي البريطاني جراهام ستيوارت توملين Graham Stuart Tomlin، حيث يقول: "إنَّ تاريخ الكنيسة المسيحية بعيدٌ كل البعد عن أن يكون خالياً من الأخطاء، ولا يحتاج النقاد إلا إلى الإشارة إلى الحروب الصليبية في العصور الوسطى"^(١).

وكان الباباوات هم قادة تلك الحروب، فقد كان البابا^(٢) في روما يُمثل في الحقيقة الرئيس الديني الوحيد وصاحب الكلمة الأقوى في أوروبا، حيث كانت الأراضي الغربية التي تشتمل على: إيطاليا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا وأجزاء من أسبانيا، كانت كلها كاثوليكية، وكانت تنظر إلى البابا على أنه رئيس كنيستهم الواحدة^(٣). يقول المؤرخ الإنجليزي هربرت جورج ويلز Herbert George Wells (١٩٤٦م): "كان البابا هو المُشرِّع الأعلى للمسيحية، محكمته بروما هي محكمة

(1) See: Nicky Gumbel, Is God a Delusion?: What is the Evidence?, p. 92.

(٢) يحسن أثناء النظر في أعمال وممارسات الباباوات التالية التي تتسم بالقسوة والعنف، أن نضع في اعتبارنا ما قاله المُنصِّر الشهير صمويل زويمر Samuel Zwemer: "كانت الحالة العامة للأخلاق حتى بين الباباوات ورجال الدين مُتكنيةً. غريغوري السابع وإينوسنت الثالث كانا باباوين عظيمين ومصلحين قويين لكهنوتٍ فاسد، لكنهما كانا استثناءً في القائمة الطويلة. لقد تم خلع أحد الباباوات بتهمة سفاح القربى، وشهادة الزور، والقتل، والتجديف". Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 9-10.

(٣) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٠.

الاستئناف النهائية الحاسمة^(١). وكانت حملات الحروب الصليبية بكافة أشكالها تخرج من تحت عباءة المؤسسة الكنسية الكاثوليكية، فقد كان البابوات في تلك العصور هم قلب أوروبا النابض، وعقلها المفكر، ويدها الباطشة، ويتمتعون بسلطة مطلقة أو واسعة جدًا، يخضع لها الجميع غالبًا. فقد كان البابا إنوسنت الثالث (١٢١٦م) أحد أكثر البابوات نفوذًا وتأثيرًا على أنظمة الحكم في أوروبا المسيحية، ويرى أنه أعلى سلطة من جميع ملوكها، وتعسف كثيرًا في استخدام عقوبة الحرمان لإجبار الأمراء على الإذعان لسلطته، وكُرِّسَ عهده لحروب عديدة نشطة في جبهات مختلفة، ضد المسلمين في الأندلس وفي مصر وبلاد الشام، وضد الطوائف المسيحية المخالفة للكاثوليكية^(٢).

وفي هذا قرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحده جرت خمس حروب صليبية من مجموع الحروب الصليبية، وهي: ثماني حروب. وقد سلكت تلك الحروب الصليبية -التي قادها الفاتيكان والبابوات الكاثوليك- في هذا القرن خارطة محددة واتجاهات ثابتة. حيث اتخذت اتجاهين: الاتجاه الأول والرئيس: ضد المسلمين، والاتجاه الثاني: ضد الطوائف المسيحية المخالفة للعقيدة الكاثوليكية. وتمركزت جغرافيًا حول ثلاثة محاور، الأول: حروب خارج أوروبا في بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا. والثاني: حروب داخل أوروبا في الأجزاء التي تحت حكم المسلمين في الأندلس ونحوها. والثالث: حروب داخلية في قلب أوروبا، ضد المعارضين لسلطة البابا، الذين سموا بالهرطقة والخارجين عن الكنيسة الكاثوليكية.

وفي سياق دراسة موقف الكنيسة الكاثوليكية والكرسي الرسولي في القرن الثالث عشر الميلادي من الإسلام، تبرز الحروب الصليبية بوصفها أداة مركزية اعتمدت عليها المؤسسة البابوية في مسعاها لمواجهة المسلمين والحد من نفوذهم في الشرق الإسلامي، لاسيما بعد استعادة المسلمين لبيت المقدس في أواخر القرن الثاني عشر. ولم تكن هذه الحروب مجرد مواجهات عسكرية بحتة، بل جاءت نتيجة تراكمات دينية وسياسية وثقافية معقدة، انعكست في خطاب الكنيسة وتعليماتها الرسمية، وفي حماس الوعّاظ ومراسيم المجامع الكنسية التي عملت على تعبئة الجماهير المسيحية تحت راية إنقاذ المسيحيين الشرقيين المضطهدين،

(١) معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٦.

(٢) انظر: ولف جانج كايزر وبرانر فانسون، مركزية الفداء في تاريخ الأسر: خبرة وسرد (آن دوبرا وإيميلي بيشرو، مرآة الشرق)، ص: ١١٩، يان دوبراتشيسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٠٧ و٢٤٣.

والحرير الديني لمكان مولد المسيح عليه السلام. وقد لعبت المؤسسة البابوية دوراً حاسماً في توجيه هذه الحروب وتبريرها لاهوتياً، بوصفها جهاداً مقدساً ضد "الكفار"، حيث لم تكتفِ بالدعوة إلى القتال، بل سخرت أدواتها كافة، من منابر الكنائس إلى المراسلات البابوية، ومن منح الغفرانات إلى استنهاض العاطفة الدينية، لتشكل بذلك منظومة متكاملة دفعت باتجاه خوض سلسلة من الحملات الصليبية المتلاحقة.

ويهدف هذا المطلب إلى تحليل هذه الظاهرة في ضوء ثلاثة عناصر رئيسية: أولاً، مبررات الحروب الصليبية كما ظهرت في خطاب الكنيسة ومراسلات البابوات؛ ثانياً، دور الوعاظ والرسائل الدينية في التحريض والتعبئة؛ وثالثاً، عرض موجز لمسار الحروب نفسها وأهم أحداثها خصوصاً خلال هذا القرن. أولاً: مبررات الحروب الصليبية.

استخدم الباباوات من أجل تبرير تلك الحروب الظالمة والقاسية على بلاد المسلمين دعاوى زائفة: دينية، وسياسية، ورغائية. فإنهم يتحدثون عن أن هذه الحروب هي إرادة الله نفسه، وأن هدفها الحقيقي هو من أجل تحرير القدس ومكان مولد وقبر المسيح عليه السلام، ومن أجل إنقاذ إخوتهم المسيحيين في الشرق من اضطهاد المسلمين. يقول البابا أوربان الثاني Pope Urban II (١٠٩٩م) في خطبته المحرّضة: "لست أنا الذي ينذركم، وإنما الرب نفسه يطلب إليكم ويحذركم، بصفتكم حملة لواء المسيح والمبشرين الداعين إليه، أن تطهروا الأرض المقدسة، التي يعيش فيها إخوانكم المسيحيون، من أولئك الرعاع [=المسلمين]"^(١).

وفقد كان من أهم المبررات المعلنة للحروب الصليبية: إنقاذ بيت المقدس من تنديس المسلمين له، وتحرير المسيحيين في فلسطين من الاضطهاد الإسلامي^(٢)، وإنقاذ القسطنطينية المسيحية من تهديدات المسلمين^(٣). وكانت هذه الدعاوى

(١) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٧.

(٢) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٥، هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٧٧-٨٨٠، يان دوبراتشيسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٣ و٨٦، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٩-٣٠، ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦٠-٦١.

(٣) يقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غورسيه Rene Grousset: "من الخطأ القول بأن هذا الحاكم [الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس] هو الذي دعا [أي البابا أوربان الثاني] إلى إعلان الحرب المقدسة، بل كانت مبادرة الحركة الصليبية إنجازاً خالصاً لهذا الحبر البابا، وقد احتفظ البابا بهذا الأمر في طويته نفسه لفترة طويلة، ولم يُفص به إلى الملاء إلا مُتكاملاً بعد روية وإمعان، بمنشور رسمي في مجمع كليرمون-

والدوافع إلى شن الحروب الصليبية التي زعمتها الكنيسة وتشبثت بها -في الحقيقة والواقع- دعاوى زائفة وذرائع مخادعة. فقد كانت الجماعات المسيحية واليهودية في البلاد الإسلامية تنعم بحقوقها وتعيش بسلام، وتركها السلطات الحاكمة وشأنها ما دامت تقوم بواجباتها، وكانوا يسمحون للحجاج المسيحيين من الخارج الذين كانوا يُعدون بالمئات بزيارة بيت المقدس، ويتسامحون معهم، ولم يكن لهم موقفٌ عدائيٌّ منهم^(١). وفي مقابل ذلك، كان الغزاة الصليبيون لا يرون في إماراتهم ومناطقهم التي احتلوها في المشرق، في بلاد الشام وبيت المقدس ونحوها، إلا مجرد مستعمرات أوروبية خاصة لهم، ولم يعيروا أي اهتمام أو رعاية بالسكان المسيحيين المحليين من الطوائف الأخرى، بل كانوا يُمارسون عليهم عنصرية عرقية، ويفرضون عليهم نمط حياتهم الغربية، وكانوا كثيرًا لا يفرقون في قتلهم بين المسلمين والمسيحيين المحليين^(٢).

فيران الكنسي، في ٢٧ نوفمبر من عام ١٠٩٥م. رنيه غروستيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣٢.

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٣ و ١٤٠ و ١٨٤-١٨٥، ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٣. وقد أرسل البطريرك تودوسيوس في بيت المقدس رسالة إلى صديقه وأخيه في المسيحية الأسقف أجتاتيوس في بيزنطة، يقول له: "إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويؤدون عنها، ويوقرون قساوستا ورهباننا، ويجلون قديسينا". انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٢٠. في مقابل ذلك، كان الصليبيون الأوروبيون دومًا يحتقرون ويعتدون على المسيحيين المحليين في بلاد الشام، ويطردونهم من مساكنهم ويهاجمون نساءهم. انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٠٢. وقام بطريرك القدس جاكوب دي فيتري Jacques de Vitry (١٢٤٠م) بكتابة تقرير إلى البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢٢٧م)، ومما جاء فيه أن الصليبيين اللاتين هم محط كراهية وسخط المسيحيين المحليين من الطوائف المختلفة كاليعاوية والنساطرة والموارنة والأقباط، وأن جميع هؤلاء يتحدثون اللغة العربية فيما بينهم، وأنهم يتوقون إلى الحكم العربي. ثم أشار إلى انحطاط أخلاق وسلوك الصليبيين الأوروبيين. انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٤٩.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٥٧ و ٣٨٤ و ٤١٨. يقول المؤرخ الإنجليزي هيربرت جورج ويلز: "سرعان ما استحوذ رجال الدين اللاتينيون [الكاثوليك] المرافقون للحملة على سلطة بطريرك القدس، ووجد المسيحيون الأرثوذكس [في القدس] أنفسهم تحت الحكم اللاتيني في حال أسوأ من تحت حكم الأتراك [=المسلمين]". معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨٥. ويقول المطران جورج خضر، مطران جبل لبنان لطائفة الروم الأرثوذكس: "المسيحية الشرقية، التي استهدفتها الحملات الصليبية، كانت مخلوعة مع بطاركتها وأساقفتها في الحكم الفرنجي لهذا المنطقة، وقد مات أبناؤها نهبًا في القدس، واختلطت دماؤهم بدماء المسلمين". جورج مستوح، جورج خضر والحوار الإسلامي-المسيحي: مقاربة لاهوتية، ص: ٢١٧. ويقول المطران فرنسوا أبو مخ، النائب البطريركي العام لطائفة الروم الكاثوليك بدمشق: "الحملات الصليبية في نظرنا هي أسوأ ما حصل في تاريخنا؛ لأنهم قتلوا باسم الله، وهذا شيء شبح، وأثاروا مسيحيين على مسيحيين، وهذا شيء ساقط". جوهان جيزل، اعترافات عربي كاثوليكي: دراسة وتحليل، ص: ٤٥.

والتهديد المزعوم الذي يُقال إنَّ المسلمين كانوا يُمثلونه للقسطنطينية لم يكن زعمًا دقيقًا، لأنَّ التهديد الحقيقي لها في ذلك العصر لم يكن قادمًا من جهة الإسلام، بل من جهة المسيحيين اللاتين المخالفين لهم في العقيدة، حيث كانت البغضاء بينهم طاغية^(١). ومعركة ملاذكرد في سنة ١٠٧١م، كانت معركة سعت إليها القسطنطينية بحماس، في مقابل السلاجقة الذين كانوا يعتذرون إليها سعيًا لتجنب القتال، وقد بذلوا جهودهم لإجراء المفاوضات مع القسطنطينية، ولم تكن لهم رغبة حقيقية في فتح القسطنطينية، لكنَّ إمبراطورها رفض التفاهم والتفاوض مع المسلمين؛ ثقة في جيشه الضخم، ومدفوعًا بضغطة شعبي لتحقيق نصر كاسح على المسلمين، فانتهت المعركة بأسر الإمبراطور، وسحق جيشه كله وتمزيقه^(٢). ثم في عام ١٠٩٢م زال أي تهديد مُفترض من قِبَل الدولة السلجوقية، بسبب ضعفها وتفككها^(٣).

ولهذا، فإنَّما أتى الخطر والتهديد الحقيقي إلى القسطنطينية من جهة الغرب المسيحي، في الحملة الصليبية الأولى حيث نهبوا المناطق البيزنطية، واعتبرهم الامبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس "برارة"، وتخلص من بعضهم بخداعهم وإرسالهم لمواجهة السلاجقة الذين قضوا عليها تمامًا، وكانوا في نظر المسلمين والمسيحيين الشرقيين "يُعتبرون دائمًا قساةً غلاظًا وبرارةً قذرين غير متحضرين"^(٤). كذلك في عام ١٠٧١م حين هاجم بوهيموند الأول Bohemond I (١١١١م) الامبراطورية البيزنطية بحملة عسكرية، وحظيت بدعم كامل أوروبا، وبمباركة ودعم وتحالف مع البابا باسكال الثاني Paschal II (١١١٨م)، وأطلق عليها مبعوثه البابوي لقب "الحرب المقدسة"^(٥). وفي الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م باشر الصليبيون أعمال السلب والنهب على الأراضي البيزنطية مما أزعج إمبراطورها منهم، واعترض قادة الحملة الصليبية على الإغريق، وحملوهم سبب فشلهم، وقد أفتى أساقفة الملك الفرنسي لويس السابع بتوجيه

(١) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٣.

(٢) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٢٦، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٨-٣٩.

(٣) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٤٠.

(٤) ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦١. وانظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨٣-٨٨٤، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٩٤، رنيه غروسيه،

موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٣.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٠٧، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٣.

السلاح إلى بيزنطة مباشرة، وبالفعل شرع الملك في إعداد حملة صليبية جديدة ضد بيزنطة، وأيده فيها كبار رجالات الدين الكاثوليك من أمثال برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux (١١٥٣م) -الذي أعلنته الكنيسة الكاثوليكية قديساً بعد وفاته ولقب بمعلم الكنيسة^(١)- وبطرس المبجل Petrus Venerabilis (١١٥٦م) رئيس دير كلونا^(٢). وفي عام ١١٥٦م شنّ الصليبيون اللاتينيون هُجوماً على ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، وكما يقول مؤرخ الحروب الصليبية ستيفن رونسيمان فقد قاموا بسلب ونهب "كل ما وقع بين أيديهم: الكنائس، والأديرة، والبلاطات، والدكاكين على حد السواء. [و]أحرقت القلاع، واقتيد الناس والقطعان إلى الشاطئ، اغتصبت النساء، وقتل الأطفال والشيوخ، ولم يكن للقتل والاعتصاب حدود، وما كان للمغول إلا أن يحسدوا المنتصرين على ما فعلوه"^(٣). وفي عام ١١٨٥م أرسل ملك صقلية غيوم الثاني William II of Sicily (١١٨٩م) جيشاً لغزو القسطنطينية، فاحتل بعض مدنها، لكنه هُزم لاحقاً على يد البيزنطيين^(٤). وفي الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤م)، التي تم اعتبارها بمثابة "فضيحة" صليبية^(٥)؛ لأنّ الصليبيين الكاثوليك استولوا على القسطنطينية -التي جاؤوا إليها تحت مزايم حمايتها من خطر المسلمين- وسلبوا الحكم من أصحابها الأورثوذكس، وصاروا هم حكامها، واستباحوا القسطنطينية التي جاؤوا لحمايتها، وأحرقوا ودمروا المنازل والكنائس والأديرة، وحطموا وأذابوا التماثيل التاريخية العتيقة، وقتلوا واغتصبوا من وجوده في طريقهم في المدينة، وتلقى البابا إينوسنت الثالث Innocent III (١٢١٦م) أنباء احتلال القسطنطينية بشيء من التفاؤل والحماس، وكان الأورثوذكسيون على

(١) See: Carol Lansing and Edward English, A Companion to the Medieval World, p. 240.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ١٤٢-١٤٣ و١٤٤، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٣.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ١٧٤.

(٤) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٤.

(٥) ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٨. كانت فضيحة إلى درجة أن المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غروسيه لم يذكرها ضمن الحروب الصليبية، يقول: "أغفلنا عن عمد الحملة الرابعة، ذلك لأنها لم توجه كالأخريات ضد المسلمين، وإنما ضد دولة مسيحية، هي الإمبراطورية البيزنطية". موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٣.

قناعة تامة أنَّ ما حصل لبلادهم كان نتيجة تورط البابا نفسه في ذلك^(١). يقول المؤرخ والحاكم البيزنطي مُعَلَّقًا على ما حصل للقسطنطينية نيكيتاس أكوميناتوس Nicetas Akominatos (١٢١٧م) على يد الصليبيين، وهو ييكي أهله وقومه الصرعى: "إنَّ محاربي المسلمين الأعداء أنفسهم، رحماء طيبون، قياسًا إلى أولئك القوم، الذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم"^(٢). ويقول المؤرخ الغربي ليونيل جان شيني مُبَيَّنًا واقع الحال بين الطائفتين المسيحيتين الشرقية والغربية: "يبين ذاك الهجوم الذي شنه المسيحيون اللاتين على المسيحيين اليونانيين، إلى أيِّ حدِّ قَسَمَ المسيحية الخلاف بين الكنائس الرومانية واليونانية، ومدى الحب القليل الذي ضاع بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب"^(٣).

وقد كان العداء الديني من جهة كاثوليك الغرب - قبل ذلك الحدث وبعده - عميقًا تجاه أرثوذكس الشرق وغيرهم من طوائف المسيحيين، وكانت أطماع أوروبا في القسطنطينية لا تقل عن أطماعهم في البلاد الإسلامية. وكانت الكنيسة اللاتينية الغربية، مُجَسَّدة في الفاتيكان في مركزها في روما، تجدد أطماعها الدينية والدنيوية كلما سنحت لها الفرصة تجاه القسطنطينية، فالهدف الديني من أجل توحيد المسيحية على المذهب الكاثوليكي وإخضاع الفرق المسيحية المخالفة تحت سلطانتها، والدنيوي من أجل الاستحواذ على الخيرات الغنية للمشرق المسيحي^(٤). فلم تكن دوافع البابا أوربان الثاني المعلنه - وهي إنقاذ القسطنطينية من تهديدات المسلمين - حقيقية، بل كانت أهدافه أكثر عمقا وتحقيقًا لمصالح البابوية في الشرق. فكان من أهم الأهداف القضاء على أكبر وأهم كنيسة شرقية مُنافسة، وهي الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية، وتوحيدها مع الكنيسة الأم، وهو الكاثوليكية.

ومع أنَّ المسيحيين الشرقيين قد قدموا مساعدات مهمة إلى الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٧م، وكانوا يحملون تجاههم مشاعر ودية، إلا أنَّ الصليبيين الغربيين كانوا يعتبرونهم مخالفين مذهبياً وزنادقة^(٥)، وكانوا يحتقرونهم ويغضونهم، وقد أرسلوا خطابًا للبابا في روما يُبيِّنون فيه أنَّ المسيحيين المخالفين

(١) انظر: دوبراتشيسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢١٦-٢٢٠، ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٨، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٦.

(٢) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٣٥.

(٣) ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٨.

(٤) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٥.

(٥) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٥.

للكاثوليك وهم الإغريق والأرمن والسوريين واليعاقبة، كفار، وأنهم يرغبون في إلحاق الهزيمة بهم^(١). وفي عام ١٢٦١م استطاع الإغريق الأرثوذكس استرداد القسطنطينية من أيدي الصليبيين الغربيين الكاثوليك الذين احتلوها من قبل، وأعلنوا انفصالهم النهائي عن كنيسة روما الكاثوليكية^(٢). وفي عام ١٢٧٣م عقدَ مجمع في ليون Council of Lyon برئاسة البابا غريغوري العاشر Gregory X (١٢٧٦م)، شارك فيه خمسمائة أسقف، وبناء على طلب البابا قام العالم اللاهوتي الدومينيكي الشهير توماس الأكويني Thomas Aquinas (١٢٧٤م) بإعداد مقالة خاصة لبيان الأخطاء الدينية للكنيسة الإغريقية الأورذكسية^(٣). أما رجل الدين الكاثوليكي والراهب الفرنسي رامن لول Ramon Llull (١٢٣٢م-١٣١٦م)، في مؤلفه (كتاب النهاية Liber de Fine)، الذي كتبه في سنة ١٣٠٥م، فكان يدعو ويفضل القيام بحملة صليبية ضد القسطنطينية. وبالفعل أعلن رسمياً الفرنسي شارل كونت فالوا Charles of Valois (١٢٧٠م-١٣٢٥م) حملته الصليبية ضده القسطنطينية، ولم تتوقف الخطط الغربية من قبل المسيحيين الكاثوليك، وبمباركة البابا، في شن حملات صليبية ضد القسطنطينية أرثوذكسية، لإعادة إخضاعها واستعادتها إلى حوزة المملكة اللاتينية^(٤). وكانت المؤسسة البابوية تستخدم الخطاب التحريضي بين المسيحيين الكاثوليك من أجل نفذ الخمول والكسل عن الحملات الصليبية وتوجيهها إلى احتلال القسطنطينية، وكان البابا كليمنت الخامس Clement V (١٢٦٤م-١٣١٤م)، لا يرغب بالوفاق الهش مع اليونان الأرثوذكس، بل يفضل العمل العسكري من أجل استعادة القسطنطينية، وكان في سياسته هذه متبعاً السياسة البابوية نفسها التي خطها من قبله البابا مارتن الرابع Martin IV (١٢٢٠م-١٢٨٥م)، ومن بعده البابا بنديكت الحادي عشر Benedict XI (١٢٤٠م-١٣٠٤م)، الذي دعم مشروع شارل كونت فالوا لاحتلال القسطنطينية، وقدم التبرعات والأموال والدعم لتحقيق نجاح

(١) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٧٨.

(٢) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩١٤.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٤٧.

(4) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 22.

وعن موقف رامن لول من المسيحيين الشرقيين، انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية:

صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، الجزء: ٢، ص: ٣٩٦.

حملته الصليبية ضدها^(١). لقد برَّرَ البابا كليمنت الخامس بشكل واضح لا لبس فيها، في رسالته التي أرسلها إلى البيزنطيين في شهر مارس من عام ١٣٠٧م، أن المبررات الرئيسة للحملة الصليبية ضد الإمبراطورية البيزنطية والقسطنطينية؛ هي انشقاق الكنيسة الأرثوذكسية، والعزم على عودة الكنيسة المنشقة في القسطنطينية إلى روما^(٢).

ولهذا، فإن مبررات الحروب الصليبية التي قادتها المؤسسة البابوية والكنيسة الكاثوليكية ضد الإسلام والمسلمين كانت زائفة وغير حقيقية، وعادت بالبلاء والدماء على المسلمين وعلى المسيحيين الشرقيين. ولم يكن هدف أول حملة صليبية وما جاء بعدها من حملات هو إنقاذ القدس أو القسطنطينية، بل ما كان يدفع المؤسسة البابوية -كما يقول كثير من المؤرخين الغربيين وغيرهم كالمؤرخ هربرت جورج ويلز Herbert George Wells (١٩٤٦م)- هو أهداف أعمق وأخطر، تتمثل في، أولاً: القضاء على الحروب الداخلية بين ملوك وأمراء المسيحيين الكاثوليك في أوروبا، وتوجيهها إلى الخارج. ثانياً: إعادة توجيه قوى أوروبا وطاقاتها، التي نشطت في السلب والنهب داخل أوروبا وأفسدتها، وتوحيدها تحت نفوذ البابا وتوجيهها إلى غنائم المشرق الإسلامي. ثالثاً: بسط السلطان على القسطنطينية، وإسقاط الكنيسة الإغريقية البيزنطية، وتوحيد الديانة المسيحية المنقسمة على مذهب واحد هو الكاثوليكية. رابعاً: فتح طريق التجارة بين الغرب والشرق الأقصى^(٣).

ثانياً: دور الوعاظ والرسائل الدينية في التحريض على الحروب الصليبية. أمام عموم أتباعها من المسيحيين الكاثوليك، احتاجت المؤسسة البابوية دوماً إلى إظهار الحملات الصليبية بصورة "الحرب العادلة" ضد أعداء الإيمان المسيحي، من المسلمين بالدرجة الأولى، ومن اليهود والأرثوذكس وغيرهم بالدرجة الثانية، وأنها دفاع عن الكنيسة الكاثوليكية. فكانت أهم وسيلة لهذا الغرض، والتي أولت

(1) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 22-23.

(2) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p.23.

(٣) انظر: معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٨٧٩-٨٨٠ و٨٨٢، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١٣٩، زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٥ و١٩، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٥، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٣٨ وما بعدها.

البابوية اهتماماً كبيراً لها بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي، هي الحملات الوعظية التعبوية التحريضية قبل كل حملة صليبية، بل أمر الباباوات الرهبان والقساوسة المبشرين الواعظين الذين تحلوا ببلاغة وتأثير خطابي بمرافقة الجيوش الصليبية في المعركة لشحن حماسهم وكرهيتهم لأعدائهم^(١).

فقد كانت الكتابات المسيحية الدفاعية في صدر الإسلام، تصور الإسلام والقرآن الكريم والنبي عليه وآله الصلاة والسلام بصورة مزيفة ومشوهة وعدائية، قائمة على أنه دين "كريه وخبيث"، وأن نبيه يصور "إما كوثن يُعبد أو كإله قبيلة"، والنتيجة بكل بساطة هي أنه دين "كاذب ومزيف"، أو هو دين "الشيطان" أو "المسيح الدجال"، تلك كانت المادة هي الأرضية التي بُنيت عليها تصورات الصليبيين تجاه الإسلام والمسلمين، وأسهمت في شحنهم بالأحقاد والكرهية^(٢). وكان قادة الحروب الصليبية من الباباوات ورجال الدين المسيحي يستغلون المشاعر الدينية في المواسم والطقوس بقصد تأجيج النفوس بالكرهية والحق، من خلال أساليب مسرحية، أو اختراع واختلاق الصور الذهنية والقصص الخيالية أو الرسومات؛ من أجل تحريض الجمهور المسيحي ضد الإسلام وضد المسلمين، وزرع الحماس في نفوسهم الجمهور من أجل القيام بحملات صليبية ضد بلاد المسلمين. ففي العقد الأخير من القرن الثاني عشر، وقف الواعظون المسيحيون أمام ستارة ضخمة من القماش رُسم عليها مجموعة من المسلمين على ظهور الخيل يقومون بتدنيس القبر المقدس في القدس^(٣). ويتفق المؤرخون المحدثون على أن مدينة القدس بصورة عامة، وقبر المسيح -أقدس الرموز المسيحية المرتبطة بفلسطين- على وجه التحديد كانت هي النقطة المركزية في تفكير الحملة الصليبية الأولى، وهو الذي أشعل الخيال الصليبي وضخ العاطفة في المشروع الصليبي، وولد رغبة عارمة في الانتقام من جرائم المسلمين المزعومة في القبر المقدس^(٤). يقول هيربرت جورج ويلز: "كانت هذه الحماسة المتأججة [في نفوس الصليبيين الغربيين] مختلطة منذ بدايتها بعناصر أكثر اتضاعاً... كان

(1) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 1.

(2) See: Asaf Hussain, The ideology of orientalism, p. 5-6.

(3) See: Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 14.

(4) See: Robert Chazan, The Anti-Jewish Violence of 1096: Perpetrators and Dynamics (Religious Violence between Christians and Jews), p. 36, Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 105.

يخيم على الجموع التي ولّت عند ذلك وجهها شطر المشرق، شيء أعمق في التكوين من عاطفة الحب، أعني به الكراهية الناجمة عن الخوف، تلك الكراهية التي أججتها دعوات الدعاة الحانقة والمبالغة في فظائع وقساوات الكفرة ناراً حامية^(١).

وقد سجّلت الوثائق، كما يقول المؤرخ الأمريكي كافين رايلي Kevin Reilly، زيادة كبيرة وملحوظة في أدعية النصر الدينية في هذا القرن، كما تم توثيق أول سجلات تبارك حمل السيف وتحث المحاربين على القتال في سبيل المسيح^(٢). وبحلول نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، أصبح الوعظ المسيحي من أهم وسائل نقل الأفكار والرسائل البابوية في المسيحية الغربية، وكان أهم غرض في ذلك العصر بالنسبة إلى الباباوات في روما الكاثوليكية هو توجيه النداءات إلى عموم العالم الغربي لمواجهة أعداء وخصوم الكنيسة في الخارج والداخل، ومن ثم شن حروب دينية صليبية لتحرير الأرض المقدسة من المسلمين، وحروب في الجبهات الأوروبية للقضاء على الجيوب المناوئة لتوجهات البابا^(٣). وفي القرن الثاني عشر الميلادي انتشر الوعظ ودعوة الناس إلى الحملات الصليبية في مناسبات عديدة ومختلفة، ووصل الوعظ إلى ذروته في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث كانت الكاثوليكية في هذه القرن وحده تخوض الحروب الصليبية في جبهات عديدة، ضد المسلمين في إسبانيا وإفريقيا وبلاد الشام، وضد الهراطقة المسيحيين، وضد المسيحيين الأرثوذكس في اليونان^(٤). يقول الباحث المعاصر كونستانتينوس جورجيو Constantinos Georgiou، المتخصص في التنصير والوعظ والخطب المسيحية والحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى: "سرعان ما أدركت الكنيسة الدور الهام الذي يمكن أن يلعبه الوعظ التبشيري في تجنيد الصليبيين، وفي جمع الأموال للحملة الصليبية، وفي إلهام الصليبيين للاستعداد للمعركة"^(٥).

(١) معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨٢.

(٢) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٤-١٩٥.

(3) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 1.

(4) See: Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 3.

(5) Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 1. See also: Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 3.

وكانت الخطابات والرسائل البابوية العاطفية التحريضية تستدعي المسيحيين إلى الحملات الصليبية، وكان الدعاة الصليبيون يحملون نسخاً منها، ويتم ترجمتها وقراءتها في أنحاء أوروبا، ويُرددها الوعاظ في مواضعهم. ومن ذلك رسالة البابا غريغوريوس الثامن، في أكتوبر-نوفمبر ١١٨٧م قبل الحملة الصليبية الأولى، تحدث فيها عن مدينة القدس، مستشهداً في رسالته بمقطع من سفر المزامير (١/٧٩)، يقول: "اللَّهُمَّ، قَدْ دَخَلْتُ الْأُمَمُ مِيرَاتِكَ، نَجَسَتْ هَيْكَلَ قُدْسِكَ، جَعَلَتْ أُورُشَلِيمَ أَطْلَالاً"^(١)، رابطاً ذلك الحدث الذي تم في الماضي للقدس على يد الأمم الوثنية بما يحدث فيها الآن على يد المسلمين، مُظهراً توجعه بسبب ما ابتليت به المدينة من قضاء قاس ورهيب، جعل البابا نفسه وإخوانه من المؤمنين المسيحيين يُصابون بالارتباك من الرعب والحزن الكبيرين، حتى أعجزهم ذلك من الفعل والقول بسهولة^(٢). وعندما دخل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي أشدّت الخطابات والرسالة البابوية التحريضية لشن المزيد من الحملات الصليبية على المسلمين. فهذا البابا إينوسنت الثالث، في شهر أبريل عام ١٢١٣م يتحدث إلى المسيحيين مطالباً إياهم بالبكاء، والبكاء مرة أخرى نيابة عن المسيح، والاستماع إلى بكاء المسيح بصوت عالٍ وهو يموت على الصليب مطيعاً لإرادة الله وممثلاً لها. وأنَّ المسيح قد ضمن فرصة الخلاص والتتويج بالسعادة لأولئك الرجال الذين يقاتلون بإخلاص في سبيله. أمّا الذين يرفضون أن يكونوا خدماً له فهم مدينون، ويستحقون عقوبة اللعنة في الآخرة^(٣).

ولم يقتصر التحريض ونشر الكراهية على الباباوات، بل كان يُمارسه باحتراف البارزون من الرهبان والقساوسة الوعاظ، وكانت جماعات الرهبان الصليبية هي أشد الجماعات حرباً على الإسلام، قد نذرت نفسها لخدمة المسيح من خلال مقاتلة المسلمين والعرب^(٤)، وكانت الحملات الصليبية تبدأ عادة بالوعظ والتحريض على يد وعّاظ الحملات الصليبية، وتستمر لتثبيت وتشجيع المحاربين وتذكيرهم بالجزاء العظيم الذي سينالهم من وراء ذلك، كذلك يتوجه الوعاظ إلى أهلي

(١) الكتاب المقدس (نسخة الرهبانية اليسوعية)، ص: ١٢٢٤.

(2) See: Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 14, Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 8.

(3) See: Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 15.

(٤) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٧.

المحاربين من أجل الصلاة والدعاء لهم بالنصر هناك في بلاد المسلمين^(١). ولم تكن دعوات الوعاظ الرهبان والقساوسة المعادية للإسلام والمسلمين مقصورة على الصليبيين فقط -بطبيعة الحال-، بل تشربت الجماهير العامة تلك المواعظ والخطب والرسائل، وحفّزت فيهم الكراهية والعنف ضد المسلمين واليهود^(٢). وهكذا اشتد الدعايات المسمومة بحسب وصف المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه Sigrid Hunke (١٩٩٩م) -التي كانت تواكب الحملات الصليبية المتجهة إلى الأرض المقدسة، من أجل القضاء على من تصفهم بـ "أعداء الرب"، يملؤهم الحقد الأعمى والكراهية المسعورة، التي صنعتها خطب ومواعظ رجال الدين المسيحي، وأثارت في نفوسهم البغضاء وأشعلت في قلوبهم الحمية والتعصب، وألهبت مخيلتهم بقصص تحريضية مختلفة^(٣).

فكان -على سبيل المثال- الراهب الفرنسي بطرس الناسك Peter the Hermit (١١٥٠م)، الذي قَدِمَ إلى أوروبا من المشرق الإسلامي، يسير حافي القدمين بثياب خشنّة ممطّياً حماراً وحاملاً الصليب، يحث ويدعو عامة الناس في الكنائس والأسواق والشوارع إلى القيام بحرب صليبية ضد المسلمين، مستخدماً الصناعة القصصية والحكايات المفتعلة التي يرويها أمام العامة عن الفظاعات والشناعات المزعومة التي يرتكبها المسلمون ضد بيت المقدس، وضد قبر المسيح، وتجاه الحجاج المسيحيين^(٤). وكذلك، برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux (١١٥٣م)، الذي كان رئيس الدير الفرنسي وقائداً بازراراً في الرهينة البندكتية، قد تصوّر المسلمين كتجسّدٍ للشرور الآثمة التي تنشر الطاعون في المجتمع المسيحي، فكانت الحروب الصليبية فرصة إلهية عظيمة مُنحت للمسيحيين للتطهر ولذبح أعدائهم^(٥). وقد وُصِفَ برنارد هذا بأنه كبير وعَظَمَ الحروب الصليبية، وكان شعاره المشهور الذي كان يتردد في آذان جنود الحملات الصليبية هو: "إما

(1) See: Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 3.

(2) See: Robert Chazan, The Anti-Jewish Violence of 1096: Perpetrators and Dynamics (Religious Violence between Christians and Jews), p. 36.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٤١٣.

(٣) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٢١.

(٤) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨١.

(5) See: Jeremy Cohen, Christian Theology and Anti-Jewish Violence in the Middle Ages: Connections and Disjunctions (Religious Violence between Christians and Jews), p. 48.

التصير وإما الإبادة^(١). وكانت مساهمته فاعلة وعميقة في تاريخ أوروبا المسيحية، وظلت أفكاره محافظة على قيمتها عند المسيحيين حتى هذا العصر، وذلك من خلال دوره كملهم في الحرب الصليبية الثانية، وحرب الهراطقة، وإصلاح الرهبانات وتأسيسها، وتجديد اللاهوت، وقيل إنه هو من ساعد البابا في إعداد خطبته التحريضة سنة ١١٤٦م، أمام ملك فرنسا لويس السابع، من أجل شن حملة صليبية ثانية على المسلمين، فكانت مؤثرة وهزت وجدان الملك وحاشيته، فأقروا إرسال الحملة^(٢). كذلك، بطرس الملقب بالمبجل Peter the Venerable of Cluny (١١٥٦م)، الراهب واللاهوتي الفرنسي ورئيس دير كلوني، الذي كان يرى في المسلمين أنموذج الكفر المهدد للمسيحية، ولهذا قدم وعد الخلاص لأولئك الذين سينضمون إلى الحملة الصليبية ويقاتلون المسلمين^(٣). كذلك قام بترجمة القرآن إلى اللاتينية، وبتأليف أربعة كتب "ضد الزندقة البغيضة لطائفة المسلمين"، والتي أصبحت مصدراً رئيساً للتصورات الغربية عن الإسلام والمسلمين^(٤). أيضاً، همبرت الروماني Humbertus Romans (١٢٧٧م)، وهو راهب دومينيكي من فرنسا، كان من عام ١٢٥٤م إلى ١٢٦٣م الرئيس العام الخامس لرهبانية الواعظين (الدومينيكان)^(٥)، ويُعتبر في القرن الثالث عشر الميلادي من أعظم رؤساء رهبانية الدومينيكان^(٦)، قد كتب رسالة سنة ١٢٤٧م تحمل عنوان: (في التبشير الصليبي ضد المسلمين)، وقدمها إلى الكنيسة وإلى ملك فرنسا، أعرب فيها عن يأسه من تنصر المسلمين، وأن ذلك لا يقع إلا نادراً حين يقع بعض المسلمين أسيراً، بل إن هذا التحول ليس إلا في الظاهر فقط^(٧). وأصبحت هناك قناعة مسيحية واسعة الانتشار بصعوبة تحويل المسلمين عن دينهم، وأنهم ليسوا مثل غيرهم من الأمم الوثنية التي قبلت بالتحول، فكان خيار

(١) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٢٥.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ١٢٥-١٢٦ و ١٤١-١٤٢ و ١٤٦-١٤٧.

(3) See: Jeremy Cohen, Christian Theology and Anti-Jewish Violence in the Middle Ages: Connections and Disjunctions (Religious Violence between Christians and Jews), p. 51.

(٤) انظر: محمود حمدي زقزوق، الإسلام في تصورات الغرب، ص: ٣٣٩.

(5) See: Valentin Portnykh, An Unknown Short Version of the Treatise De predicatione sancte crucis by Humbert of Romans, p. 721,

(6) See: Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 15.

(٧) انظر: محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي: نقد العقل التاريخي، الجزء ١، ص: ١٥٢.

الحرب مع الإسلام هو الحاضر في الذهنية المسيحية^(١). ولهذا في كتابه الآخر *The De Predicatione Sancte Crucis* (الكراسة بالصليب) أو (الوعظ بالصليب) *The Preaching of The Cross*، نجد همبرت الروماني متحمساً للحرب الصليبية داعياً إليها، فالكُتَيْب الصغير هذا، المكون من (١٢) فصلاً، يحتوي في نهاية كل فصل على موعظة كالنداء النهائي تدعو المستمعين والقراء وتحريضهم من أجل أخذ الصليب^(٢)، وعلى الحث على الحج إلى الأرض المقدسة، وأن فكرة الحج إلى تلك الأماكن يجب أن تتم ليس فقط بسبب الأماكن المترتبة بحياة المسيح، ولكن أيضاً بحياة مريم العذراء^(٣)، وفيه وصف للكوارث التي حصلت للمسيحيين، وحديث عن استيلاء المسلمين على تلك البلاد، والحروب التي دارت وتدور بينهم وبين الصليبيين، وفصول حول عوائق الحروب الصليبية، وأعاد في كتيبه هذا نشر عظة البابا أوربان، وهي أول عظة حملت وحمست المسيحيين على شن أول الحملات الصليبية^(٤). وهذه الرسالة ألّفها همبرت الروماني في ستينيات القرن الثالث عشر ككتيب محمول لوعاظ ومُصَرِّي وخطباء الصليب^(٥). وكان كذلك أودو دو شاتورو *Eudes de Châteauroux* (١٢٧٣م) من أنشط علماء اللاهوت في الوعظ والدعوة إلى الحروب الصليبية، حيث ترك ١١٠٠ موعظة مخطوطة بعده^(٦). أمّا العالم والراهب والواعظ الفرنسيّ جيلبرت توريّني *Gilbert of Tournai* (١٢٨٤م)، فقد كان من نشطاء رجال الدين في الدعاية والتحريض إلى شن الحملات الصليبية على المسلمين، ففي إحدى مقاطع خطبه كان يشرح ما يعنيه أن يكون الصليبي (وليّاً لله)، وأن ذلك إنما يتحقق من خلال استعداده للمساعدة

(١) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢١.

(2) See: Valentin Portnykh, An Unknown Short Version of the Treatise De predicatione sancte crucis by Humbert of Romans, pp. 723–724, Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 15, Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 12.

(3) See: Valentin Portnykh, An Unknown Short Version of the Treatise De predicatione sancte crucis by Humbert of Romans, p. 725.

(4) See: Valentin Portnykh, An Unknown Short Version of the Treatise De predicatione sancte crucis by Humbert of Romans, p. 728.

(5) See: Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 15.

(6) See: Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 10.

على استعادة القدس من المسلمين، فمن خلال الحملة الصليبية ضد المسلمين يختبر الله ولايته أتباعه^(١).

يقول الباحث والمؤرخ الكندي جافين لانغموير Gavin Langmuir (٢٠٠٥م)، المتخصص في تاريخ العصور الوسطى: "كان رجال الدين الأكثر نشاطاً في التحريض على هذا العنف الديني، وخاصة في أوروبا المتوسطة، هم الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، وترتب على اضطهادهم [لغيرهم] نتائج مشهورة"^(٢). وكان من غير المستغرب في هذا المناخ المليء بالكراهية والتحريض والشحن العاطفي الديني أن يُؤتي ثماره على أرض الواقع عنفاً وقسوة وقتلاً واضطهاداً وتشريداً ضد المسلمين، وضد جميع المخالفين للعقيدة الكاثوليكية. ففي نص معروف باسم صلاة الحاخام شمعون بن يوشاي، وهو نصٌ يهوديٌ كُتبَ حوالي القرن الثالث عشر الميلادي، يصف بعض ما كان يحدث في حروب المسيحية ضد المسلمين، فيقول: "كان المسيحيون يزيلون أدمغة الأطفال المسلمين، ويذبحونهم للمسيح كل يوم"^(٣). ويقول فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres (١٢٨م)، المؤرخ والقس الصليبي المشارك في الحملة الصليبية الأولى وشاهد العيان على تلك الأحداث، إنَّ الصليبيين كانوا يأكلون لحوم البشر، وذكر المؤرخ رالف أوف كين Ralph of Caen (١٢٠م)، وكان مرافقاً للحملة الصليبية الأولى وعائناً أهوالها، أنَّ المتعصبين الصليبيين كانوا يلتهمون لحوم الأطفال^(٤). ولم تكن تصرفات الصليبيين الشرسة والعنيفة -حين وصلوا إلى بلاد المسلمين- مُستغربة منهم، إذا عَرَفنا أنهم لم يصلوا إلى الشرق إلا بعد عمليات تعبوية مكثفة وممنهجة قامت بها المؤسسة البابوية، تم من خلالها شحن مشاعر شعوب أوروبا بصورة مزورة عن الإسلام والمسلمين، تم تصوير المسلمين فيها بصورة الملاحدة والكفرة، الذين يعبدون الأصنام والشيطان، وصوِّرَ الإسلام بأنه دين الإباحية^(٥).

(1) See: Christoph Maier, *Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross*, p. 29.

(2) See: Gavin Langmuir, *At the Frontiers of Faith (Religious Violence between Christians and Jews)*, p. 146.

(3) Israel Jacob Yuval, 'They tell lies: you ate the man': Jewish Reactions to Ritual Murder Accusations (*Religious Violence between Christians and Jews*), p. 99.

(٤) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٧٨.

(٥) انظر: عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص: ١٤٠-١٤١. ولم يقف التحريض الديني على المسلمين بين أوروبيين عند زمن الحروب الصليبية، بل استمر بعد ذلك خصوصاً المسلمين في الأندلس حتى بعد سقوط الأندلس بعقود طويلة، حيث استمر التشويه ونشر الكراهية ضدهم مستمراً، حيث لعبت المسرحيات الدينية للقسيسين دوراً مهماً في

ثالثاً: حملات الحروب الصليبية:

بدأت شرارة الحروب الصليبية عند أول خطبة ألقاها البابا أوربان الثاني Urban II في مجمع كليرمون The Council of Clermont سنة ١٠٩٥م^(١)، يدعو فيها إليها إلى حرب صليبية كبرى ضد المسلمين^(٢)، ويعد المسيحيين المشاركين فيها بمغفرة الخطايا عند الموت^(٣)، وقد شارك في حضور هذا المجمع أكثر من ٢٥٠ من رعاة الأسقفيات ومن رجال الدين المسيحي، وتجمعت حولهم الحشود الكبيرة مرددة بعد كلمة البابا التحريضية: "الله يريد ذلك"^(٤)، "تلكم هي مشيئة الله"^(٥)، "إنها إرادة الله"^(٦). وقد كشفت الوقائع والأحداث لاحقاً أن تلك الدوافع -كما تقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه- ليست سوى دعاية ومحض خدعة كنسية، كانت تخفي خلفها أهدافاً سياسية وأطماعاً مادية للكنيسة، تم حسابها بصورة دقيقة جداً^(٧).

لقد أكد البابا في هذا الاجتماع على ضرورة أن تتوقف الخلافات الداخلية بين ملوك المسيحيين، وأن تنتظم قواهم موحدة "حتى يُطرد الكافرون، وتصبح أرض القبر المقدس في الأيدي المسيحية من جديد"^(٨)، "والعار عليكم عندما يعتدي هذا الجنس الحقير عبدة الشيطان على أبناء الله المخلصين"^(٩). وقام البابا بذكاء بتوظيف حضور الراهب الفرنسي بطرس الناسك القادم إلى المجمع من الشرق بمزاعم وحكايات وقصص يعوزها الدليل لتصديقها، مع أن هناك تضارباً كبيراً

الخيال الشعبي والأدبي المسيحي الإسباني في تصوير المسلم كعدو ديني وحربي، يتم تصوير شخصيته بصورة كاريكاتورية لأقصى درجة، وتكون أبرز صفاته هي أنه منافق ومتعصب أو ساذج. انظر: آن تيولاد، بطولة المورو في دراما تاريخية ملحمية لكالديرون: حب بعد الموت أو توزاني ألبوجارا (آن دوبرا وإيميلي بيشرو، مرآة الشرق)، ص: ٤٠.

(١) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨٠، زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٥، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٣، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٩، ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦٠.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٦.

(٣) انظر: جورج جبور، مع اقتراب الذكرى الـ ٩٠٠ لشن حروب الفرنجة على العرب: هل ينبغي على الفاتيكان أن يقدم شرحاً اعتذارياً لأحفاد ضحايا هذه الحروب؟، ص: ٥٥١-٥٥٢.

(٤) يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٥ و ٩٢.

(٥) رنيه غروسليه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣٣.

(٦) يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٤٩-٢٥٠.

(٧) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٥.

(٨) هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨٠.

(٩) يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٤٩.

حول مصداقية بطرس هذا، ومدى صدق زيارته للشرق بالفعل، والتشكيك في رحلته من أصلها، وأنه لم يزر المشرق الإسلامي والقدس مُطلقاً^(١). ويُشير بعض الباحثين الغربيين إلى أن آراء المؤرخين متضاربة حول مدى حضور بطرس الناسك بالفعل للمجمع الكنسي، حيث لا يستبعد أن ما قام به من تحريض ضد المسلمين كانت نتيجة تجنيد له من قِبَل السلطة البيزنطية بغرض تجنيد المتطوعين الأوروبيين لمحاربة البلاد الإسلامية^(٢). ويرى المؤرخ هربرت جورج ويلز أن قصص بطرس الناسك لا يهتم صدقها من كذبها، لأن تلك الفترة كانت غامضة، إذ كان المهم هو الهدف من مثل هذه القصص، وهو تأجيج مشاعر الصليبيين بالكراهية تجاه المسلمين، وتوظيف ذلك في دعوة البابا لحملة صليبية ضد بلاد المسلمين^(٣). وبالفعل، فقد اقتنص البابا تلك القصص والأساطير وطار بها مخاطباً جمهوره في حماس، قائلاً لهم: "سمعت كلمات رسول المسيحيين الشرقيين، لقد حدثكم عن المصير المأساوي لأورشليم ولشعب الله... وعن القبر الذي يدنس أولئك الذين سيقومون في الآخرة فقط من أجل أن يصبحوا القش الذي تلتهمه النار الأبدية... تتصارعون فيما بينكم، تظلمون الأرامل واليتامي، وتنسون كل شيء... كفوا عن قتل إخوتكم، فالحري بكم أن تذهبوا لمحاربة الشعوب التي تحتل أورشليم"^(٤). ويقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غورسييه Rene Grousset (١٩٥٢م): "في ذلك اليوم، استصرخ البابا الملة المسيحية لتجريد السلاح لتحرير القبر المقدس، ولتحرير مسيحيي الشرق الرازحين تحت طغيان الإسلام... كانت دعوة البابا لمحاربة الإسلام موجهة إلى الملة المسيحية قاطبة... وسرت دعوة الحركة الصليبية بسرعة فائقة؛ لأنها كانت ذات نزعة عاطفية أثارت إيماناً روحياً جماعياً"^(٥).

لقد كان خطاب البابا أوربان الهائج يتضمن محاولات لاهوتية أدت دوراً مركزياً في إثارة الحماسة الشعبية الكبيرة وتأييد ملوك أوروبا؛ من أجل مهمة المشروع الحربي المقدس المنشود، فكانت هي البداية الحقيقية والعملية للحركة الصليبية نحو المشرق، وسوف يستمر تأثيرها العميق على المجتمع الأوروبي خلال

(١) انظر: يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٥٣.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٩٣.

(٣) انظر: معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨١.

(٤) يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٦ و ٨٨.

(٥) رنيه غورسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣٣.

الأربعة قرون القادمة^(١). وكان هدفه هو تجميع وتجنيد مرتزقة أوروبا ضد العالم الإسلامي^(٢)، وبالفعل فقد استجاب لهذه الدعوة مقاتلون فقراء، يصفهم أستاذ التاريخ في جامعة هارفرد ويليام بولك Willaim Polk بأنهم "متعطشين للسلطة، ومستعدين للنهب والسلب ولإجابة نداء البابا أوربان، بعد أن تشبّعوا بحماسته، وبدافع من غاياتهم الدنيوية الخاصة"^(٣). ويقول أرنست باركر Ernest Barker (١٩٦٠م) عن المكونات البشرية للحملة الصليبية: "تيارٌ يحمل في أُمواجه العكسة أدرنا كثيرة من المتشردين والمفلسين، ومنتبعي المعسكرات، والباعة المتجولين، والرهبان اللاجئين، والأشرار الفارين"^(٤). ويقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غروسّيه عن أفراد الجيش الصليبي بأنهم مجموعة من "أصحاب الضمائر الآثمة"، و"الفئات الباغية"، من "المغامرين والفرسان [و]قطاع الطرق" التي "استرجعت مرة أخرى على أرض آسيا نزاعاتها الأثيمة الشرسة"^(٥).

فقد كانت الحملة الصليبية الأولى قد قامت تحت ذريعة طلب الإمبراطور الإغريقي في القسطنطينية النجدة من الغرب بسبب خوفه من تهديدات السلاجقة^(٦)، فاستصرخ البابا أوربان الثاني المسيحيين في أوروبا كلها لينقذوا بيت المقدس من "الكفار"، فتجمع في القسطنطينية تحت الرايات الصليبية أربعة جيوش أوروبية، وانطلقت في مسيرتها نحو مدينة القدس^(٧). وكانت الطريق إلى القدس شبه مفتوحة أمام الجيوش الصليبية، والسبب في ذلك يعود إلى انشغال الجيوش الإسلامية بحروبها الأهلية فيما بين حكامها المتخاصمين سياسياً، أو متحاربين مذهبياً، فحارب كل واحدٍ منهم الصليبيين على حادة، فهزّموا منفردين^(٨). يقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غروسّيه: "تكشف السهولة

(1) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 1 and 166.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٣.

(٣) ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦١. وانظر: رنيه غروسّيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣٤.

(٤) هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨٢.

(٥) انظر: رنيه غروسّيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣٤.

(٦) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٦، ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦٠.

(٧) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٥-١٢٦، زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٥.

(٨) انظر: رنيه غروسّيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣٧ و ٤٠-٤١ و ٥٦-٥٧ و ٦٢-٦٣، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي

النسبية التي تمكن بها الصليبيون وحلفاؤهم البيزنطيون من الاستيلاء [على مدن المسلمين]، عن تردي أوضاع العالم الإسلامي في ذلك الوقت...ومن الواضح أنَّ الأوضاع العامة للعالم الإسلامي ساعة قدوم الصليبيين، تفسرُ جانباً كبيراً من أسباب انتصارات الصليبيين، رغم ما ارتكبه هؤلاء من هفوات...[و] أتيح للحركة الصليبية الاستفادة من الصراعات الناشئة بين المسلمين^(١).

ولعل تأمل ما قاله الفقيه علي بن طاهر بن جعفر السلمي (٥٠٠هـ/١١٠٦م)، خطيب الجامع الكبير بدمشق، يكشف عن حقيقة واقع العالم الإسلامي في ذلك الوقت، ويُفهم في ضوءه كيف تمكن الصليبيون من اجتياح البلاد الإسلامية بسهولة. يقول السلمي عن حال المسلمين: "شنت الله شملهم، وخالف كلمتهم، وألقى العداوة والبغضاء بينهم، وأطمع أعداءهم في انتزاع بلادهم من أيديهم، وشفاء صدورهم منهم، فوثبت طائفة على جزيرة صقلية، على حين تباين من أهلها وتنافس، وتملكوا مثل ذلك بلداً بعد بلد من الأندلس، ولما تناثرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد من اختلاف أربابها، وتفرق أكبارها، مع اختلالها واضطرابها، أمضوا عزائمهم على الخروج إليها، وكانت القدس نهاية أمانهم منها، فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك متفرقة، وقلوب غير متفقة، وآراء متباينة...حتى تملكوا من البلاد ما لم تنته إليه عامة آمالهم، وبلغوا أضعاف ما أرادوه من إهلاك أهلها وإذلالهم، وهم الآن جادون في الاجتهاد، مُجدون في طلب الازدياد، تتضاعف أطماعهم لما يظهر لهم من الإحجام عنهم، وتتبسط آمالهم بحكم ما يرونه من رضى أعدائهم بالسلامة منهم، حتى لقد تيقنوا أنَّ البلاد كلها صائرة إليهم، وأنَّ جميع أهلها أسرى في أيديهم"^(٢).

ويُعلق الباحث الغربي المعاصر الدكتور بول شيفدين Paul Chevedden على كلام الفقيه علي بن طاهر السلمي، بأنَّ هذا الفقيه، الذي قدّم وصفه السابق في كتابه (الجهاد) بعد ست سنوات فقط من احتلال الصليبيين للقدس في الحرب الصليبية الأولى، استطاع برؤيته الثاقبة أن يرى بُعد الحركة الصليبية في مداها الكامل، وأنها لا تقتصر على صراع قصيرٍ ومحلي، حدوده تتمحور حول القدس

المقدسة، ص: ٤١، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٠٤ و ٢٠٠، ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦٠، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٩.

(١) رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٤٠ و ٤١ و ٤٣.

(٢) محمد مؤنس عوض، البابا أوربان الثاني (١٠٩٩م) والفقيه علي بن طاهر السلمي (١١٠٦م): دراسة مقارنة من عصر الحروب الصليبية، ص: ٣٥-٣٦.

أو بلاد الشام، بل كان يرى أنَّ الحرب الصليبيَّة في حقيقتها كانت "حرباً مقدسة" شاملة مُتكاملة، تمثل مواجهة واسعة للعالم المسيحي ضد الإسلام؛ للقضاء عليه وتطويقه، وقد اتخذت تلك المواجهات ثلاث جبهات رئيسية: صقلية، وإسبانيا، وسوريا، وأنها قد بدأت بغزو صقلية الإسلامية منذ عام (١٠٦٠م)، ثم امتدت إلى إسبانيا الإسلامية، ثم توجهت إلى قلب العالم الإسلامي^(١).

ففي الحملة الصليبيَّة الأولى وهي في طريقها لحرب المسلمين و"تحرير القدس"، قاموا بنهب وسلب كثير من الغذاء والممتلكات في بلدان أوروبا المسيحيَّة وحرقت بعض المدن هناك^(٢)، وأرتكب المسيحيون كذلك أول مذابح كبرى في حق اليهود في أوروبا، معظمهم في شمال فرنسا وألمانيا، حيث قُتل ما بين أربعة آلاف إلى ثمانية آلاف يهودياً^(٣)، وقد قال أحد الصليبيين معلناً: "لقد خرجنا في زحف طويل لقتال أعدائنا في الشرق، وأمام أعيننا أسوأ أعدائه، اليهود، فعلينا بهم أولاً"^(٤). وفي مسيرتهم من سنة ١٠٩٦م إلى سنة ١٠٩٩م، وهم يشقون طريقهم نحو مدينة القدس، قام الصليبيون بنهب المناطق البيزنطيَّة^(٥)، وقتلوا وعذبوا كثيراً من المسلمين، حيث تحدث المؤرخ الصليبي المعروف ريموند آكلي Raymond of Aguilers (١١٠٥م) -الذي رافق الحملة الصليبيَّة الأولى، وعان بنفسه ما حصل فيها من وقائع وأحداث، وكتب تاريخاً عن ذلك- عمَّا فعله الصليبيون في مدينة معرة النعمان -على سبيل المثال- بعد سقوطها بيوم، حيث قام "الصليبيون الجشعون بتعذيب المسلمين من أجل العثور على الكنوز المخفية". تم قاموا

(1) See: Paul E. Chevedden, The Islamic View and the Christian View of the Crusades: A New Synthesis, p. 184.

انظر أيضاً: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيَّة، الجزء: ٣، ص: ٨٨٣-٨٨٤، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيَّة، الجزء: ٢، ص: ٩٤-٩٥، ويليام بولك، الصليبيَّة والجهاد، ص: ٦١، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦.
(٢) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيَّة، الجزء: ٣، ص: ٨٨٣-٨٨٤، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيَّة، الجزء: ٢، ص: ٩٣-٩٤.

(3) See: Gavin Langmuir, At the Frontiers of Faith (Religious Violence between Christians and Jews), p. 143.

انظر أيضاً: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيَّة، الجزء: ٣، ص: ٨٨٣-٨٨٤، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيَّة، الجزء: ٢، ص: ٩٤-٩٥، ويليام بولك، الصليبيَّة والجهاد، ص: ٦١، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦.
(٤) كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦.
(٥) انظر: ويليام بولك، الصليبيَّة والجهاد، ص: ٦١، هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيَّة، الجزء: ٣، ص: ٨٨٣-٨٨٤، رنيه غروستيه، موجز تاريخ الحروب الصليبيَّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣٩.

بإشعال الدخان بأبخرة الكبريت من أجل إخراج الناس الخائفين من مخابئهم، حتى أولئك الذين اعتمدوا على كلمة الأمان التي منحها لهم الأمير الصليبي بوهيموند Bohemond كان مصيرهم إمّا تم ذبحهم أو بيعهم كعبيد. وقام الصليبيون بتقطيع جثث موتى المسلمين الملقاة في الطرقات، بحثاً عن العملات الذهبية التي ظنّ الصليبيون أن الضحايا ابتلعوها قبل قتلهم. ثم يؤكد ريموند آكلي أن المسيحيين تحولوا إلى أكلة لحوم البشر^(١). وكان الصليبيون أحياناً لا يفرقون في قتلهم بين المسلمين وبين المسيحيين المحليين^(٢). وحين وصلوا إلى القدس سنة ١٠٩٩م، خاض الصليبيون في الدماء من كثرة قتلاهم من المسلمين^(٣)، وقتلوا العديد من اليهود والمسيحيين المحليين معهم، وأحرقوا أماكن العبادة الإسلامية واليهودية بالأبرياء الذين احتموا بها خوفاً من القتل، ومن نجا من الموت تم أسره وبيع كالعبد^(٤). تقول المستشرق زيجريد هونكه: "يصف المؤرخ الأوروبي ميشائيل درسيرر كيف كان البطريرك نفسه يعدو في زقاق بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها، مُردّدًا كلمات المزمور التالي: (يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس حقًا إنَّ للصدّيق مكافأة، وإنَّ في الأرض إلهاً يقضي). [٥٨: ١٠-١١]، ثم أخذ في أداء القدّاس قائلاً: 'إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قرّبانٍ أعظم من ذلك ليرضى به الرب'"^(٥).

(1) See: John Hugh Hill & Laurita Lyttleton, Raymond IV, Count of Toulouse, p.105.

انظر أيضًا: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٨٣-٨٨٤، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٩٤-٩٥، ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦١، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٩٤ و٩٦.

(٣) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٢٢.

(4) See: Gavin Langmuir, At the Frontiers of Faith (Religious Violence between Christians and Jews), p. 146-147.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٠١، ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦١، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦.

(5) See: Gavin Langmuir, At the Frontiers of Faith (Religious Violence between Christians and Jews), p. 146-147.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٠١، ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦١، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦.

وقد قَدَّرَت المصادر الأوروبية عدد من ذبَح من المسلمين عَقِبَ الاستيلاء الأول على القدس بحوالي عشرة آلاف مسلم، أما المصادر الإسلامية فقد قَدَّرَت عدد القتلى بمائة ألف ذبيح^(١). ويعلق المؤرخ المؤرخ الأمريكي كافين رايلي على تلك المذبحة الرهيبة، بقوله: "إنَّ حمَّامَ الدم علَّم المسلمين (والبيزنطيين) أن يكرهوا الغرب كما لم يكرهوه من قبل... لقد عبَّر المسلمون عن حزنهم على الذين فقدوهم على يد (الكلاب المسيحية)، وأقسموا على مقابلة النار بالنار"^(٢). ويقول المؤرخ الغربي ليونيل جان شيني Lionel John Cheney إنَّ الصليبيين بعد نجاحهم في دخول بيت المقدس "أعملوا الذبح لا تأخذهم فيه رحمة، ولم يستحيوا الشيوخ أو النساء"^(٣)، ويقول المنصر الشهير صمويل زويمر Samuel Zwemer (١٩٥٢م): "عندما جاء الصليبيون تحت قيادة جودفري بوليون Godfrey of Bouillon، (الذي رفض ارتداء تاجًا من الذهب حيث كان مخلصه يرتدي تاجًا من الأشواك)، أمام القدس، قبلوا الأرض، وتقدموا على ركبتهم في صلاة التوبة، لكن بعد الاستيلاء على المدينة، ذبحوا سبعين ألف مسلم، وأحرقوا اليهود في معابدهم، وخاضوا بالدم إلى القبر المقدس؛ لتقديم الشكر"^(٤).

وكان أول عمل قام به الصليبيون حين استولوا على القدس، كما يقول المؤرخ البولندي يان دوبراتشينسكي وكذلك المطران فرنسوا أبو مخ، النائب البطريكي العام لطائفة الروم الكاثوليك بدمشق، هو طرد رجال الدين المسيحيين المخالفين للكاتوليك، من الأرثوذكس والجورجيون والأرمن والسريان والأقباط، كما قاموا

(١) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٧. ويقول المفكر المسيحي جورج جبور إنَّ أعداد القتلى الذين سقطوا في القدس على يد الحملة الصليبية الأولى هو الأعلى في تاريخ القدس منذ وجودها حتى يومنا هذا. انظر: جورج جبور، مع اقتراب الذكرى الـ ٩٠٠ لشن حروب الفرنجة على العرب: هل ينبغي على الفاتيكان أن يقدم شرحاً اعتذارياً لأحفاد ضحايا هذه الحروب؟، ص: ٥٥٢.

(٢) كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٧.

(٣) ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٦.

(٤) Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 9.

وانظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦. وقارن بين دخول الصليبيين للقدس وما فعلوه بأهلها من المسلمين، وكذلك من فيها من المسيحيين واليهود الذين كانوا تحت حماية المسلمين، وبين ما فعله المسلمون حين استردوا القدس من الصليبيين وكيف كان تسامحهم صادمًا للصليبيين أنفسهم. انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٨٤-١٨٥، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٦٦، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٩.

بتعذيب الكهنة الإغريق الأرثوذكس لإجبارهم على الاعتراف بإمكان الذخائر والكنوز المقدسة المخفية في الكنيسة في القدس^(١).

لقد حَقَّقَت الحملة الصليبيَّة الأولى، بوجشيتها تلك، نجاحًا في وضع أقدام الصليبيين في بلاد المسلمين، حيث تم تأسيس مملكة صليبيَّة في بيت المقدس، وإمارات في بعض بلاد الشام^(٢). يقول جيمس واترسون: "كان النهب الدموي للقدس في الحملة الصليبيَّة الأولى أمرًا مُعتَادًا بالمعايير الأوروبية في ذلك العصر، ولكنه كان أمرًا غريبًا على ثقافة وأعراف الشرق. ودخلت منطقة الشرق الأوسط مرحلة دمويَّة"^(٣). ومنذ احتلال القدس أول مرة، حرصت المؤسسة البابويَّة على إرسال الإمدادات الصليبيَّة إلى مستعمراتهم في فلسطين وبلاد الشام، لضمان بقائهم وترسيخ وجودهم^(٤). ومما سهل بقاء الصليبيين في البلاد التي احتلوها؛ تحالف بعض أمراء المسلمين في بلاد الشام معهم في حربهم ضد إخوانهم المسلمين الذين أتوا لنجدتهم^(٥)، حيث، كما يقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غروسيه، "اقتضت المصلحة إلى تفضيل هؤلاء الفرنجة على أبناء دينهم أنفسهم"، ومن ثمَّ فقد كان احتمال وجود خطر حقيقي يُمكن أن يهدد الوجود الصليبي غير مُتوقع، "طوال استمرار التشتت الإسلامي على حاله"، والتي اجتهد الصليبيون في القدس على تعميق حالة الانقسام، ومنع قيام أي نوع من الاتحاد يكون بين المسلمين، والسعي من أجل "الوقوف في وجه هذه الوحدة، وذلك

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيَّة، الجزء ٢، ص: ١٠٣-١٠٤، جوهان جيزل، اعترافات عربي كاثوليكي: دراسة وتحليل، ص: ٤٦.

(٢) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٦.

(٣) جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٣٣.

(٤) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبيَّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٤٥.

(٥) الفرقة بين المسلمين السنيين نفسها، غير الفرقة الحادة بين السنة والشيعة من الفرق المتعددة، تعمقت أكثر بعد الحملة الصليبيَّة الأولى مباشرة، وحرص الصليبيون، من أجل تمكين وجودهم في البلاد التي استولوا عليها، على تعميق الفرقة والشقاق بين الأمراء المسلمين، وذلك من خلال عقد تحالفات ثنائيَّة مع بعض الأمراء المسلمين القريبين منهم ضد البعيدين، ليحولوا دون وحدتهم ويزيدوا من شق الصف بينهم، وهكذا اختلطت التحالفات السياسيَّة مُتجاهلة العلاقات الدينيَّة المفترضة بين الأشقاء. يقول الفيلسوف البريطاني- التشيكي وعالم الإنسانيات والاجتماع أرنست غيلنر Ernest Gellner (١٩٩٥م)، عن مثل هذه الحالة المتشابهة والمعقدة: "ستؤدي الانتهازية السياسية إلى أشد الارتباطات غرابة وشذوذاً، وبالتالي، قد تصبح أشكال الانحياز العقدي والسياسي إلى هذا الطرف أو ذاك شديدة التعقيد من الناحية التكتيكيَّة". أرنست غيلنر، ما بعد الحداثة والعقل والدين، ص: ١٥.

بتكريس تفكك القوى الإسلامية عن طريق مناصرة الدويلات السوربية الصغرى، وتحريضها ضد المطامع التوسعية للدولة الزنكية^(١).

لكن نور الدين زنكي استطاع، مع أبيه عماد الدين من قبله، أن يوحّد صفوف جزء من المسلمين في مواجهة الوجود الصليبي، ففي عام ١١٤٤م نجح عماد الدين في استعادة الرها من أيدي الصليبيين، ثم في عام ١١٤٦م نجح نور الدين في تثبيت الوجود الإسلامي فيها، وبهذا سقطت دولة صليبية واحدة من مجموع أربع دول أسست بعد غزوهم المشرق الإسلامي^(٢). ولهذا، في سنة ١١٤٥م دعا البابا إيجين الثالث Eugene III (١١٥٣م) إلى حرب صليبية ثانية، وعهد بأعمال التحريض والوعظ من أجل دعم الحملة الصليبية الثانية بالكامل إلى جماعة الرهبنة السيسترسيّة The Order of Cistercians، وهي جماعة متفرعة عن جماعة الرهبنة البندكتيّة The Benedictines order، بقيادة برنارد من كليرفو، وهو شخصيّة مبغضة جدًا للمسلمين ومن أعظم أنصار الحروب الصليبية ضدهم^(٣)، فكلفه البابا إيجين الثالث في شهر مارس عام ١١٤٦م بالتبشير بالحملة الصليبية الثانية في جميع أنحاء فرنسا وأوروبا الوسطى^(٤)، وساعد برنارد البابا في إعداد خطبته وموعظته المؤثرة التي حرّض فيها ملك فرنسا على إعداد الحملة الثانية، وفي ألقاء مواعظ أخرى أسهمت في مشاركة الأمراء الأوروبيين في الحملة^(٥). وهكذا، انطلقت الحملة الصليبية الثانية في عام ١١٤٧م بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور الألماني كونراد الثالث، لكنها أخفقت في تحقيق أهدافها بسبب النزاع بين قادة الحملة أنفسهم

(١) رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٥١ و ٥٤.

(٢) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٥٧-٥٨.

(3) See: Jeremy Cohen, Christian Theology and Anti-Jewish Violence in the Middle Ages: Connections and Disjunctions (Religious Violence between Christians and Jews), p. 48.

(4) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 1.

وانظر أيضًا: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٥٨.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٤٢.

وبين الصليبيين المحليين^(١)، وبسبب المواجهة القويّة التي واجهوها من قِبَل القوى الإسلاميّة^(٢). وكان برنارد من كليرفو يُعلن أنّ سبب هزيمة الصليبيين في الحملة الثانية يعود إلى معاصيهم وآثامهم وخطاياهم^(٣).

وفي عام ١١٨٧م، حَقَّق صلاح الدين الأيوبي نصرًا كبيرًا على المستعمرات المسيحيّة في بلاد الشام، فَحرَّرَ القدس وانتزع معظم المدن من أيدي الصليبيين، ولم يبقَ معهم إلا مدينة صور وطرابلس بعض الحصون^(٤). وقد استثار رجوع القدس إلى أيدي المسلمين المؤسسة البابويّة وخلفها العالم المسيحي في أوروبا، ولهذا فإنه في عام ١١٨٧م أوكلَ البابا غريغوري الثامن Gregory VIII (١١٨٧م) إلى شخصين هما: الكاردينال الأسقف هنري أسقف ألبانو Henry of Albano (١١٨٩م)، الذي كان معلمه الروحي هو المتعصب برنارد من كليرفو، وبالدوين فورد Baldwin of Ford (١١٩٠م) رئيس أساقفة كانتربري، بمهمة التحريض والتبشير بالحملة الصليبيّة الثالثة في فرنسا وألمانيا وإنجلترا^(٥)، ومنح للصليبيين المشاركين في الحملة الغفران، فثار الحماس في نفوسهم وبدأت حملتهم بأعمال عنف ضد اليهود في أوروبا^(٦). وانطلقت تلك الحملة الصليبيّة الثالثة في عام ١١٩١م، يقودها ملوك أوروبا الكبار: الإمبراطور الألماني فريدرick بارباروسا، وملك فرنسا فيليب أوغسطس، وملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد^(٧). واستهلها ريتشارد قلب الأسد حين وصل إلى بلاد المسلمين متوجّهاً إلى بيت المقدس بارتكاب مجزرة مروعة، حيث قام بذبح ما يقارب الثلاثة آلاف أسير

(١) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٧، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٥٨-٥٩، هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانّيّة، الجزء: ٣، ص: ٨٨٨، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ١٤٣-١٤٤.

(٢) انظر: رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٥٨.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ١٤٦.

(٤) انظر: رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٦٥-٦٦.

(5) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 1.

(٦) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ١٨٧-١٨٨.

(٧) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانّيّة، الجزء: ٣، ص: ٨٨٨، ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٧-١٢٨، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٤٩، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٦٧.

مسلم، وقام ببقر بطونهم ثم إحراق أجسادهم^(١). لكن في هذه الحملة تعرض الصليبيون إلى الهزيمة والفشل والنزاع فيما بينهم^(٢)، وانتهت باضطرابهم إلى توقيع اتفاقية هدنة في شهر سبتمبر عام ١١٩٢م، وتفرقت جيوشهم^(٣).

وفي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، قام البابا إينوسنت الثالث Innocent III (١٢١٦م) بدعوة أوروبا إلى شن حروب صليبية ثلاث، حملة صليبية على الأندلس، وثانية ضد المسيحيين المخالفين والهرطقات داخل أوروبا نفسها، وثالثة أكبر وهي الحملة الصليبية الرابعة التي يجب أن تتوجه نحو مدينة القدس^(٤). وسبقت هذه الحملة الصليبية كالعادة بحملة وعظية تحريضية قادها الوعاظ المسيحيون ضد المسلمين، لشحن الحماس في نفوس المقاتلين الأوروبيين، كما فعل ذلك الواعظ الجوال فولكو النيولي Fulk of Neuilly (١٢٠١م)^(٥). واستجابة لنداء البابا انطلقت الحملة الصليبية الرابعة في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي تحديدًا في عام ١٢٠٢م، تحت دعوى إنقاذ القسطنطينية من تهديدات المسلمين، وكان هدفها الأصلي هو مصر^(٦). يقول المؤرخ الغربي جيمس واترسون: "كان الملك ريتشارد قد حاول مرتين، أثناء الحملة الصليبية الثالثة، أن يقنع قادة جيشه بالزحف على مصر. وكان يدرك أنه بدون الاستيلاء على مصر، فإن الممالك الصليبية في الشرق ليس لديها إلا القليل من الأمل في البقاء على قيد الحياة"^(٧). لكن المصالح التجارية غيرت وجهة الحملة من مصر إلى

(١) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٥٠، دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٩٥، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ٢٠٠. يقول المؤرخ الأمريكي كافين رايلي بعد هذه الحادثة: "ومثل هذه الأعمال الوحشية جعلت من العسير على المسلمين، لبعض الوقت، الاحتفاظ بسماعتهم". الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ٢٠٠.

(٢) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٧-١٢٨، دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٩٩، رنيه غروسبيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٦٧.

(٣) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٦٣، رنيه غروسبيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٦٨ و ١١٤.

(٤) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٦٩، رنيه غروسبيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٠.

(٥) انظر: دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢١٤.

(٦) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٨، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧١.

(٧) جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧١. وانظر: دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢١٤.

القسطنطينية، وذلك من خلال النفوذ القوي لتجار البندقية، الذين وازنوا بين منافعهم التجارية الخاصة والمشاركة مع مصر، والتي يخشون أنهم سوف يفقدونها لو قامت الحرب مع مصر، وبين منافعهم من غزو القسطنطينية وربحية ذلك وسهولته^(١). وصعد البابا اينوسنت الثالث وصدم بعدم رغبة الصليبيين مغادرة القسطنطينية والتحرك إلى فلسطين، فأعلن الحرمان الكنسي على تلك الحملة الصليبية وكذلك على البندقية، ثم تراجع عنه^(٢). وهكذا رجحت المصالح والأرباح التجارية، وتحولت الحملة إلى القسطنطينية، وصارت كما يصفها المؤرخ الغربي ليونيل جان شيني "فضيحة"^(٣)، حيث استولوا على القسطنطينية التي جاؤوا ليساعوها، وقلبوا الحكم فيها، ونهبوا كنائسها وكنوزها وتحفها التاريخية، وأصبحوا هم الحكام والأمراء في تلك الإمبراطورية^(٤).

لم تهدأ همّة المؤسسة البابوية تجاه المسلمين، ففي عام ١٢١٧م تمت الدعوة لشن حمة صليبية جديدة لتحرير الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، وحرّض عليها البابا اينوسنت الثالث، مستغلاً فشل الحملة التي سبقتها^(٥)، وبالفعل انطلقت الحملة الصليبية الخامسة، يصحبها المبعوث البابوي الكاردينال الأسباني بيلاجيوس الكالواني Pelagio Galvani (١٢٣٠م) أسقف ألبانو، لخبرته وقسوته في التعامل مع المسلمين ومع المسيحيين من غير الكاثوليك^(٦). وحطّت هذه الحملة رحالها على شواطئ مصر في عام ١٢١٨م، وهاجمت مدينة دمياط واحتلتها في عام ١٢١٩م، وقتلوا سكانها^(٧)، وتذكر المستشرق الألمانية زيجريد هونكه أن "المذابح الفظيعة التي أبيد فيها أهل دمياط بمصر جميعهم، [كانت] بناءً على

(١) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩١، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١١٥-١١٦، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ٢٠٠.

(٢) انظر: دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢١٥، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ٢٠٠.

(٣) ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٨.

(٤) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٨، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٠، كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ٢٠٠-٢٠١.

(٥) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٠، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧١-٢٧٢، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧١.

(٦) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٤١ و ٢٤٨ و ٢٥٠.

(٧) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧٢-٢٧٣، دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٥١.

أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنييسة^(١). لكنَّ المسلمون تمكنوا من تحرير أراضيهم المصريَّة، بعد حصارهم للصليبيين في دمياط، ثم رضوخ الصليبيين في نهاية الأمر للتفاوض، والخروج "بالخزي بعد جلاء غير كريم" من مصر في عام ١٢٢١م^(٢).

ومن الشهادات على حُسن معاملة المسلمين في مصر لأعدائهم، ما كتبه عالم اللاهوت أوليفروس المدرسي Oliverus Scholasticus، من كولونيا في ألمانيا، بعد ما شاهد بعينه مدى تسامح المسلمين مع الأسرى الصليبيين المستسلمين، وبُهر بكيفية تعامل الملك الكامل الأيوبي (١٢٣٨م) مع أسراه برحمة ورفق ولم يُعاملهم بالمثل، فكتب له رسالة في عام ١٢٢١م، ومما جاء فيها، قوله: "منذ تقادم العهود، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، خاصة إزاء أسرى العدو اللدود، ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبداً طاغيةً، ولا سيذاً داهيةً، وإنما عرفناك أباً رحيماً شملنا بالإحسان والطيبات، وعوناً منقذاً في كل النوائب والملمات. ومن ذا الذي يمكن أن يشك لحظةً في أنَّ مثل هذا الجود والتسامح والرحمة هو من عند الله...إنَّ الرجال الذين قتلنا آباءهم، وأبناءهم، وبناتهم، وإخوانهم، وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم وكدنا نموت جوعاً، راحوا يؤثروننا على أنفسهم، على ما بهم من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم، لا حول لنا ولا سلطان"^(٣).

أمَّا الحملة الصليبيَّة السادسة، فهي كما يصفها المؤرخ ويلز: "حملة قاربت درجة السخافة"^(٤). فقد حَفَّتْها ملابس عديدة، حيث كان البابا غريغوري التاسع Gregorius IX (١٢٤١م) -حتى قبل أن يصبح في منزلة البابا حين كان أسقف مدينة أوستيا Ostia- لديه أكبر المخاوف والشكوك حول الإمبراطور فريديريك الثاني Friedrich II (١٢٥٠م)، ليس فقط حول مدى التزامه الحقيقي بالحملة الصليبيَّة، ولكن أيضاً حول سلوكه الشخصي والديني، وموقفه من مذاهب اللومبارديين (The Lombards) المخالفين الذين ظهروا في منطقة لومبارديا

(١) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٣٣.

(٢) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيَّة، الجزء: ٣، ص: ٨٩١، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧٤-٢٧٥، دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيَّة، الجزء: ٢، ص: ٢٥٣، رنيه غروسبيه، موجز تاريخ الحروب الصليبيَّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٢.

(٣) زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٣٣-٣٤.

(٤) هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيَّة، الجزء: ٣، ص: ٨٩١.

شمال إيطاليا، وتوانيه في إنزال أشد القساوة عليهم كما أمره بذلك البابا إينوسنت الثالث^(١). لم يتحل غريغوري التاسع بطبعه بالصبر؛ وكان يرى ضرورة مواجهة المشاكل التي تعترض البابوية بصورة حاسمة، وكانت أخطر مشكلة في نظره هي علاقاته بالإمبراطور، ولم تكن الحملة الصليبية إلا جزءًا فقط من تلك المشكلة.

وكان الإمبراطور فريديريك الثاني قد عُرِفَ بتعاطفه مع العرب والإسلام^(٢)، وكان البابا غريغوري التاسع يُظهر عدم احترامه لموقفه الفاتر من الهراطقة، ويظهر في خطابه ولهجته الحادة مع الإمبراطور تأكيداً لحقيقة أنه صاحب السلطة المطلقة على الإمبراطور، وأنه القاضي الأعلى على الأرض^(٣)، وأخذ البابا يحث الإمبراطور على المسارعة في المشاركة في حملة جديدة ضد المسلمين^(٤). وحاول الإمبراطور فريديريك الثاني أن يُماطل البابا غريغوري التاسع محتجاً بأهمية هزيمة المسلمين في أوروبا نفسها، وتحديدًا في صقلية، قبل الذهاب إلى الشرق لغزوهم^(٥)، وكان البابا سعيداً بأي فشل يمكن أن يحصل للإمبراطور فريديريك، وكان مصمماً على أن يثبت للجميع أن الإمبراطور متذبذب وغير ثابت الإيمان. وكانت الحملة الصليبية الجديدة هي فرصته ليثبت ذلك، وقد حذر البابا بنفسه الإمبراطور أنه سيتحرك ضده لو بدر منه أي تخاذل أو تفريط في عدم التحرك بالحملة الصليبية. وقد ظهرت للبابا أمارات توقع منها أن يفشل فريديريك الثاني في مهمته وما تعهد به، وأنه لن يتمكن من الانطلاق في الموعد المحدد، ومن ثمَّ يكون قد حنث بقسمه، وهكذا يستحق الطرد والحرمان الكنسي^(٦). ولكن ما حصل في الواقع كان خلاف ما يتمناه، حيث ظهر نجاح خطط فريديريك الثاني في التقدم بصورة جيدة، وبحلول عام ١٢٢٧م كانت الحملة الصليبية قد جمعت أعداداً كبيرة من المقاتلين الألمان والمرترقة والحجاج

(1) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 162, Edward Coleman, Cities and communes (Italy in the Central Middle Ages), p. 47-48.

وانظر: هيرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٨.

(٢) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٣.

(3) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 164.

(٤) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٢-٧٣.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٥٤، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٣.

(6) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 165.

المتحمسين، الذين سينقلهم الإمبراطور مجاناً إلى بلاد الشام^(١). وقام بالفعل بإرسال ألف رجل من أجل دعم الإمارات الصليبية في بلاد المسلمين، لكنه لم يُسافر بنفسه إلى مدينة القدس إلا في عام ١٢٢٨^(٢).

لكن الحملة نفسها تأخرت عن موعدها بسبب مرض الإمبراطور، الذي وجد نفسه مضطراً ليسارع ليشرح الأمر للبابا. فأرسل سفراء إلى غريغوري التاسع ليبين له أن التأخر كان بسبب مرضه، فلم يقبل البابا منه ذلك العذر، ولا اعترف بسفرائه، وأعلن أنه أخلف وعده وحنث بقسمه، وكأن البابا كان ينتظر هذه الفرصة على أحر من الجمر، وأعلن البابا للعالم المسيحي أن الإمبراطور بطبعه مخلف الوعد، ناكث الإيمان، فاشل في قيادة حملة صليبية، وكانت التهمة واضحة والعقوبة كذلك^(٣)، وهي الحرمان والطرده، وهو ما حصل بالفعل^(٤)، وشهر البابا برذائل الإمبراطور وكفرياته ومعاصيه في رسالة علنية نشرها عام ١٢٢٧م^(٥). لقد كان البابا بصورة واضحة لا تقبل الشك - يستخدم تأخر الحملة الصليبية ضد الإمبراطورية لتبرير موقف بابوي أوسع وهو فرضة الهيمنة والسلطة البابوية الدينية والزمنية، حيث كان يريد إضعاف سلطة الإمبراطور، وسحب جزء من ممتلكاته ونفوذه منه، ذلك "الصليبي المزيف"^(٦) الذي قال عنه البابا: إنه كان

(1) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 165.

(٢) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧٦.

(3) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 166-167.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦٧، هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩١،

(4) See: Hiroshi Takayama, Law and monarchy in the south (Italy in the Central Middle Ages), p.72.

وانظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧٦، انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٨، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦٧، رنيه غروسنيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٣، زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٣١.

(٥) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٨.

(٦) كان يُنسب إلى هذا الإمبراطور التشكك والتمرد والإلحاد، وسخريته واستخفافه وتهكمه بالأديان عموماً، وبالدين المسيحي على وجه الخصوص، وتقليده للمسلمين في عاداتهم وطبائعهم، واتخاذهم الحراس من المسلمين، وتقريبه للعلماء في بلاطه من أديان مختلفة خصوصاً المسلمين، وييدي تعاطفاً مع العرب والإسلام. انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٩، انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٧ و ٨٩٩، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٥٤ و ٢٦٧ و ٢٦٨-٢٦٩ و ٢٧٠، رنيه غروسنيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٣.

يضطهد الكنيسة ويطرد رجالها، ولا يظهر أي احترام للحقوق والحريات المالية للكنيسة في صقلية^(١).

وبطبيعة الحال، لم يقف الإمبراطور مكتوف الأيدي، بل قابل تحريض البابا للمؤمنين المسيحيين بتحريض مقابل كشف فيه حقيقة البابا والكنيسة وحبهم للمال والثراء وتناقضهم بين مواظهم النبيلة وممارساتهم القبيحة، وقام بتحريض ملوك أوروبا ضد المؤسسة البابوية التي نازعتهم سلطتهم واستبدت بسلطتها^(٢)، ووقف هو بنفسه ضد البابا وخاصمه، ودخل في حروب معه^(٣). ويُشير الباحث ديفيد صموئيل أبو العافية David Samuel Abulafia -وهو أستاذ في جامعة كيمبردج ومتخصص في تاريخ إيطاليا وأسبانيا في القرون الوسطى، وهو يهودي من أصل أسباني- إلى هذا الأمر، حيث يقول: "اتهم فريديريك الكنيسة بالتخلي عن مبادئ مؤسسها، حيث كان الفقر أساس الكنيسة وليس الثروة، لقد كان الباباوات ذئاب في ملابس الخراف"^(٤).

وقد حاول الإمبراطور فريديريك الثاني -الذي يُوصف بأنه صليبي مُتحرر- أن يحقق نجاحاً ليعزز موقفه بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، وظهرت في الأفق فرصة مناسبة تلوح له حين طلب منه السلطان الكامل الأيوبي حاكم مصر، الذي تربطه به علاقات دبلوماسية، المساعدة ضد أخيه الملك المعظم الأيوبي حاكم دمشق. فتم التحالف بين فريديريك الثاني ملك الفرنجة وبين السلطان الكامل الأيوبي^(٥)، وكان الاتفاق يقضي بأن يقوم الكامل الأيوبي بإعادة الأراضي المفقودة من مملكة القدس إلى ملك الفرنجة، وفي المقابل، كان على فريديريك الثاني مهاجمة دمشق والقضاء على خصوم ملك مصر في الشام. لقد كان فريديريك الثاني يدرك بشكل واضح أهمية وجود النزاع والشقاق بين الحكام المسلمين، وضرورة العمل على تعميقه وتتميته؛ من أجل ضمان نجاح الصليبيين

(1) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 166-167.

وانظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٢، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٨٦.

(2) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 168-169.

وانظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٨-٨٩٩، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٧٠-٢٧١.

(٣) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٩.

(4) David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 169.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦٧، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٣.

في مساعيهم، ولكي تبقى القدس في أيديهم^(١). ويذكر الباحث ديفيد صموئيل أبو العافية أن الإمبراطور فريدريك الثاني في الوقت الذي كان يتحالف فيه مع الملك الكامل في مصر، قام بعرض التحالف مع الملك المعظم في دمشق ضد أخيه الكامل، لأنه كان يُدرك جيدًا أن مصلحته العظمى تكمن في إبقاء حالة الصراع مشتعلة ومستمرة بين الحاكمين المسلمين، لأنه إذا حقق أحدهما الانتصار التام على الآخر، فإن العالم الإسلامي سيتحد مرة أخرى تحت الهيمنة الأيوبيّة^(٢).

وعن طريق التفاوض مع السلطان الكامل في مصر، نجح فريدريك الثاني في الحصول سلمياً على القدس، فاحتفل بانتصاره الدبلوماسي، وقام بتتويج نفسه في كنيسة القيامة في مارس سنة ١٢٢٩م^(٣)، واعتبر هذا الإنجاز هو الحملة الصليبيّة السادسة^(٤). وبطبيعة الحال لم يُسعد ذلك البابا غريغوري التاسع، فإنه حين علم بتلك المفاوضات التي تجري بين الإمبراطور فريدريك الثاني والملك الكامل بشأن تسليم القدس إلى الصليبيين وخضوع المدينة لسلطة الإمبراطور، قام بإرسال رسالة سرية إلى الملك الكامل (=عدوه الكافر)، يطلب منه ألا يسلم القدس إلى الإمبراطور، وأخذ البابا يُدبر عملية اغتيال الإمبراطور على يد فرسان المعبد Knights Templar، لكن تم كشفها بواسطة الملك الكامل الذي أخبر الإمبراطور بالمؤامرة عليه من قبل المؤسسة البابويّة^(٥).

لم تستمر النتيجة التي حققها الإمبراطور فريدريك الثاني طويلاً، فقد عادت القدس إلى أيدي المسلمين^(٦)، وتعالّت الصيحات في أوروبا من جديد من أجل القيام بحرب صليبيّة جديدة. فقام البابا غريغوري التاسع في سنة ١٢٣٩م ببعث سفرائه إلى كافة أنحاء أوروبا يستنهضها إلى حملة صليبيّة جديدة، وبعد عشر سنين،

(1) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 170–172.

وانظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٣-٧٤.

(2) See: David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor, p. 172.

(3) See: Hiroshi Takayama, Law and monarchy in the south (Italy in the Central Middle Ages), p. 72.

انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٢٦٨.

(٤) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٩، هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٨٩٢، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧٦-٢٧٣.

(٥) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٣١.

(٦) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٨٩٣.

تخللتها الثلاث سنوات الأخيرة التي تم فيها إعداد الحملة^(١)، تحرك الصليبيون في أوروبا لأداء تلك المهمة، ولأنَّ ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX) (١٢٧٠م)، الملقَّب بالقدِّيس، كان يعتقد -كما يقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غروسِّييه- "أنَّ حلَّ مشكلة الأرض المقدَّسة يكمن دائماً في القاهرة"^(٢)، لهذا فقد قام بشن حربٍ على مصر في عام ١٢٤٩م من خلال احتلاله دمياط^(٣)، كذلك هاجم فلسطين ثم بعدها هجم على تونس، وعُرِفَت هذه الحملة باسم الحملة الصليبيَّة السابعة، وكان بصحبته -كما يبدو- الواعظ الفرنسيكاني جُلبرت تُوْرِناي Guibert of Tournai (١٢٨٤م)، وكذلك الراهب الدومينيكي همبرت الروماني Humbert of Romans (١٢٧٧م)، ومن المرجح أنَّهما لعبا دوراً وعظيماً ومهماً في تحريض المسيحيين من أجل الانضمام لتلك الحملة^(٤). وقد بلغ التحريض مداه على يد الراهب الكاثوليكي رودولف السيسترسيّ Rudolf der Zisterzienser (الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي)، فقد كانت خطبه الموجهة إلى العامة في ألمانيا وشمال فرنسا سبباً في التحريض ضد اليهود، فتحمس المسيحيون وشرعوا في الاعتداء على اليهود، ثم باشروا أعمال السلب والنهب وهم في طريقهم أثناء مرورهم بالبلدان الأوروبية والأراضي البيزنطية^(٥). لكنَّ لويس التاسع فشل فيها فشلاً ذريعاً في حملته تلك على مصر^(٦)، وقُتِل كثيرٌ من جنوده، واستسلم من بقي حيّاً منهم، بمن فيهم الملك لويس التاسع نفسه عام

(١) انظر: رنيه غروسِّييه، موجز تاريخ الحروب الصليبيَّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٥، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٨٨ و ٣٠٤.

(٢) رنيه غروسِّييه، موجز تاريخ الحروب الصليبيَّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٦.

(٣) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٨٥.

(4) See: Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 10-12.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٤٢.

(٦) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٩، رنيه غروسِّييه، موجز تاريخ الحروب الصليبيَّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٦.

١٢٥٠م^(١). فقررَ وهو لا يزال في فلسطين طرد المرابين اليهود من فرنسا في عام ١٢٥٣م، وكانت خطوته هذه مرتبطة بفشله في الحملة الصليبية السابعة^(٢). وفي عام ١٢٦٧م بدأ ملك فرنسا لويس التاسع مرة أخرى في التجهيز للحملة الصليبية الثامنة^(٣)، وكان هدفها الأصلي مصر، لكنَّ شركاء التجارة الغربيين أرادوا تغيير اتجاهها إلى مكان آخر غير مصر حتى لا تتضرر تجارتهم مع شريكهم السلطان الظاهر بيبرس (١٢٧٧م)، الذي أتقن المناورات السياسية والتجارية معاً ببراعة منقطعة النظير، فاتجهت الحملة إلى تونس، وفي طريقها تعرّضت للابوئة والأمراض، فهلك كثيرٌ من الصليبيين بمن فيهم لويس التاسع نفسه عند شواطئ تونس عام ١٢٧٠م^(٤).

وبنهاية هذا الحملة الثامنة والأخيرة، توقفت الحملات الصليبية الكبرى على بلاد الشام^(٥)، وأخذت بقية الإمارات والقلاع والحصون الصليبية تنهال أمام ضربات السلطان الظاهر بيبرس الخاطفة، واستطاع بحنكته ودرايته السياسية والعسكرية أن يقوم بتطهير معظم البلاد الشامية من الوجود الصليبي اللاتيني، وأسس دولة قوية استطاع خلفاؤه من بعده مباشرة أن يُنهوا الوجود الصليبي في بلاد الشام نهائياً في عام ١٢٩١م، حيث استطاعوا فتح مدينة عكا^(٦)، وبها انتهت قصة الحروب الصليبية الدامية في العصور الوسطى في مصر وبلاد الشام^(٧).

(١) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٨٨، هيربرت ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٣، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٧. وانظر:

Michael Lower, Tunis in 1270: A Case Study of Interfaith Relations in the Late Thirteenth Century, p. 506.

(2) See: Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 12.

انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٤١.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٤١، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٠٩.

(4) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. ٨٥.

وانظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٨٩٣، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٨٠، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، الجزء: ٢، ص: ٤٣٢.

(٥) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣١٣-٣١٤.

(6) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 3, David Morgan, The Mongols, p. 18٥.

وقد عزا بعض الباحثين الغربيين سبب هذا الإخفاق الصليبي إلى عدة أسباب تتعلق بالغرب نفسه، من أهمها، أولاً: افتقارهم إلى زعامة واحدة حقيقية وقوية، ثانياً: محاربة ومنازعة بعضهم بعضاً، ثالثاً: النزاعات الدائمة بين البابوات من جهة وبين الأباطرة والأمراء من جهة أخرى، رابعاً: انقطاع المدد والدعم الغربي عنهم في فترات حرجية^(٢). لقد فشلت بالفعل جميع الحروب الصليبية التي شنّها الغرب في القرون الوسطى على بلاد المسلمين في الشرق في تحقيق البقاء الدائم للصليبيين في شبرٍ واحدٍ من تلك البلاد الإسلامية، والتي قد كانوا يخططون لها لمدة ثلاثة قرون وظلت في دائرة اهتماماتهم الكبرى، لكنها خلفت آثاراً مدمرة بقيت بعد رحيلهم حتى هذه اللحظة. يقول جيمس واترسون: "انتصر المسلمون في الحرب المقدسة في الشرق في القرن الثالث عشر، ولكن عواقب هذا الانتصار كانت مريرة للغاية للحضارة التي حققت هذا الانتصار"^(٣).

المطلب الثاني: حروب استرداد الأندلس.

بدأ المسيحيون في شمال أسبانيا حرباً منظّمة وتدرجية أطلقوا عليه اسم حرب الاسترداد The Reconquista، بتشجيع ودعم من المؤسسة البابوية، وومتابعة وتنسيق كامل مع روما، بدأت بالزحف البطيء على المدن والقرى والبلدات الإسلامية من الشمال ودفع المسلمين نحو الجنوب، واستغرق الزحف فترة طويلة من الزمن^(٤). وقد تم اعتبار هذه الحرب منذ بدايتها -كما يقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غروسييه- "مشروعاً مسيحياً عالمياً"^(٥)، كان هدفه واتجاهه ثابتاً منذ البداية، وهو إزاحة سيطرة الإسلام تماماً عن شبه الجزيرة الأيبيرية، وطرد المسلمين منها بصورة نهائية^(٦). إن روح الحروب المسيحية

انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٨٤-٣٨٥، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٨٠-٨١، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٨٤٠.

(١) انظر: بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ١٠٨، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٠٥-٣٠٩ و ٣٢٤، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١٣٥.

(٢) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٩ و ١٣٠-١٣١ و ١٦٣، رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٨٠-٨٢ و ١٤٠.

(٣) جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٣٠.

(٤) انظر: ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦٠، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٨٨.

(٥) رنيه غروسييه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣١.

(٦) منذ سقوط مدينة القدس على يد الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى، تنبه قلة من العلماء إلى أنّ الحملة تلك ليست مجرد نزوة عسكرية عابرة من قِبل الفرنجة، بل هي في الحقيقة مشروع شامل لتطويق العالم

التي بدأت مُبكرًا في إسبانيا، وحققت نجاحات واضحة، شجعت البابا أوربان الثاني على التفكير في تحقيق نجاحات مماثلة في الشرق بإعلان حرب صليبية هناك^(١)، إذا كان الصليبيون الأسبان -كما يحكي ذلك المنصر الشهير صمويل زويمر- يفوزون بالمدينة بعد مدينة، وينتزعونها من أيدي المسلمين بنجاح مطرد^(٢).

وكانت ولادة فكرة الحروب الصليبية قد بدأت كمشروع عالمي في الأندلس ضد المسلمين، وكانت بتحريض من المؤسسة البابوية، حيث تولت تلك المؤسسة كبر تجبيش العالم المسيحي الغربي ضد الإسلام وأهله في الجزيرة الإيبيرية، وتمهيد الانطلاقة الكبرى بعدها لمواجهة الإسلام أينما حل، حيث يقول المؤرخ الفرنسي المتخصص في تاريخ الكنيسة أوغستان فليش Augustin Fliche (١٩٥١م): "إن العالم الغربي، بأمر من البابا، يُكرس كل قواه لمحاربة العالم الإسلامي، لقد ولدت فكرة الحملات الصليبية"، وهكذا كانت بالفعل أولى التطبيقات الفعلية للحروب الصليبية قد بدأت من جنوب فرنسا وزحفت باتجاه شمال الأندلس^(٣). فقد دعا البابا إسكندر الثاني Pope Alexander II (١٠٧٣م) إلى خوض حرب على "المغاربة"^(٤)، وأعلن الصفح وتخفيف العقوبات والمغفرة من الذنوب للذين يحاربون المسلمين في إسبانيا ويقتلون هناك^(٥). ثم دعا بعده البابا أوربان الثاني، إلى حملة صليبية جديدة في أسبانيا سنة ١٠٨٩م^(٦). ولم يكن هناك حاجة بالنسبة

الإسلامي، كانت بداياته من شمال الأندلس. وممن تنبه إلى ذلك، الفقيه علي بن طاهر السلمي (٥٠٠هـ/١١٠٦م)، حيث يقول السلمي: " فوثبت طائفة [من الصليبيين] على جزيرة صقلية، على حين تباين من أهلها وتنافس، وتملكوا مثل ذلك بلدًا بعد بلد من الأندلس... وكانت القدس نهاية أمانهم منها، فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك متفرقة، وقلوب غير متفقة، وآراء متباينة... [ف]انتصاعف أطماعهم... حتى لقد تيقنوا أن البلاد كلها صائرة إليهم". محمد مؤنس عوض، البابا أوربان الثاني (١٠٩٩م) والفقيه علي بن طاهر السلمي (١١٠٦م): دراسة مقارنة من عصر الحروب الصليبية، ص: ٣٥-٣٦. وقال الباحث الغربي بول شيفدين بأن هذا الفقيه، استطاع أن يرى الحرب الصليبية في مداها الكامل، وأنها في حقيقتها كانت حرب مقدس شاملة متكاملة للقضاء على الإسلام وأهله، كانت قد بدأت في أرض الأندلس قبل أن تبلغ المشرق الإسلامي. انظر: Paul E. Chevedden, The Islamic View and the Christian View of the Crusades: A New Synthesis, p. 184.

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٨٧ و٨٩.

(2) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 3.

(٣) انظر: رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٣١.

(٤) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٨٧.

(5) See: Gavin Langmuir, At the Frontiers of Faith (Religious Violence between Christians and Jews), p. 142.

(٦) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٨٨.

إلى الأسبان إلى أن يشاركوا في الحملات الصليبية التي شنت على بلاد المسلمين في المشرق، إذ تم مباركة حربهم الصليبية في بلادهم نفسها لمحاربة المسلمين، وهم العدو نفسه الذي تحاربه الحملات الصليبية في الشرق، وكان واجب الأسبان المقدس، منذ القرن الثامن الميلادي حتى القرن الخامس عشر الميلادي، هو القضاء على المسلمين وطردهم من الأندلس^(١).

وهكذا، بدأ الأسبان حركتهم الاستردادية، فأخذوا يُحاصرون المدن والقرى واحدة واحدة، يقتلون من فيها من الرجال، ويسبون النساء والذرية^(٢). وكانت المؤسسة البابوية كثيرًا ما تتدخل من أجل إصلاح وتنظيم المؤسسات الدينية الكاثوليكية في الأندلس وتشرها وتعمق أثرها بين السكان^(٣)، وكذلك الإصلاح والتوسط بين ملوك المسيحيين في الأندلس، وتخفيف حدة الصراع بين مملكة البرتغال ومملكة قشتالة، وكانت حجة المؤسسة البابوية تتمثل في أن الصراع بين أمراء المسيحيين في أسبانيا يمنعهم من احتلال المزيد من أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية، ويهدد بتوسع حدود الإمارات الإسلامية^(٤). وهكذا شجعت مواقف ودعم المؤسسة البابوية المستمر للمسيحيين الأسبان للقتال المسلمين بحماس في الأندلس، باعتبارها حربًا دينية صليبية، وباعتبارات دنيوية نفعية، حيث منحهم البابوية حق امتلاك الأراضي والخيرات والثروات التي ينتزعونها من أيدي المسلمين هناك^(٥).

ولئن كانت الحملات الصليبية في المشرق الإسلامي واجهت الهزائم والانكسارات، فإنها نجحت في الأندلس. ففي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي -وهو القرن محل اهتمام هذه الدراسة- ركزت المؤسسة البابوية على دعم الحملات الصليبية ضد الأندلس^(٦)، فتتابع سقوط المدن الإسلامية، حيث سقطت أشبيلية وقرطبة في يد الأسبان^(٧). أما ميورقة Majorca، وهي مدينة وميناء

(١) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٦٤.

(٢) فعلى سبيل المثال: في عام ١٠٦٤م حين نجح الصليبيون الفرنسيون بانتزاع المدينة الإسلامية بربستر أو برباسترو Barbastro، التي تقع في أقصى الشمال الشرقي لأسبانيا، من أيدي المسلمين، قاموا ببيع سكانها الرجال، أما من بقي منهم، فيقول يان دوبراتشينسكي: "حصل كل فارس فرنسي على بيت وزوجة وأطفال الفارس الموريتاني المهزوم في المدينة". انظر: أوروبًا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٩٠.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبًا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٨٩.

(4) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 72.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبًا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ٨٧.

(٦) انظر: كافين رابلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ٢٠١.

(٧) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٦٧.

بجزيرة ميورقة، فقد قام جيمس الأول James (١٢٠٨م - ١٢٧٦م)، ملك أراغون في القرن الثالث عشر، باحتلالها في شهر مايو لعام ١٢٢٩م. وفي عام ١٢٣١م وقعت جزيرة مَنُورَقَة Minorca تحت سيطرة جيمس الأول، وهي الجزيرة التي تعتبر الثانية من حيث المساحة بعد جزيرة ميورقة، وأصبح المسلمين يدفعون الجزية سنويًا مقابل ضمان الحق في ممارسة شعائرهم الإسلامية. وفي عام ١٢٣٥ احتلت جزيرة يَابِسَة Ibiza بواسطة حملة خاصة نظمها رئيس أساقفة تاراغونا بموافقة الملك جيمس الأول. وهكذا أصبح البحر في قبضة المسيحيين، وموقعًا متقدمًا للقوات البحرية المسيحية^(١). ووصولاً إلى القرن الثالث عشر الميلادي وخلالها، تأسست للمسيحيين في شمال الأندلس أربع ممالك: مملكة أراغون، ومملكة نافارا، ومملكة قشتالة، ومملكة البرتغال^(٢).

ويذكر الباحث ديفيد صموئيل أبو العافية أنَّ معظم المسلمين الذي كانوا في تلك الجزر التي احتلها المسيحيون تسربوا منها ببطء، فبعضهم هاجر وترك بلاده، فحل محلهم هجرات مسيحية من مناطق مختلفة، وبعضهم الآخر ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية، وهكذا تغيرت طبيعة السَّكَّان بسرعة، بحيث إنه عند نهاية القرن الثالث عشر الميلادي أصبح المسلمون أقلية محاصرة^(٣). أما في جزيرة صقلية فقد قام الإمبراطور فريديريك الثاني بسحق المسلمين هناك، ونقل جزءًا كبيرًا من السَّكَّان المسلمين خارجها، وبعد أن وطَّد ملكه فيها، حمل الصليب وسار إلى الحملة الصليبية في عام ١٢٢٨م^(٤).

وهكذا، بعد الاستحواز على الجزر، أخذ الملك جيمس الأول يتطلع لاحتلال اليابسة، فاحتل في عام ١٢٣٨م مدينة بَلَنَسِيَة Valencia، وهي تُعَبَّرُ من أكبر المدن الأندلسية التي تقع على البحر المتوسط في شرق البلاد. وقد شغل الملك جيمس الأول بهمين اثنين، همَّ سياسي وآخر ديني. أما الهم السياسي فقد تمثل في كيفية الحفاظ على المناطق الجديدة المحتلة في ديار المسلمين كمدينة بَلَنَسِيَة وغيرها، وكيفية السيطرة على المسلمين فيها. أما الهم الديني، فقد تمثل في الكيفية المناسبة التي سَيُنَصَّر فيها اليهود والمسلمين، الذين يقعون تحت سيطرته

(1) See: David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, pp. 338-339.

(٢) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء ٢، ص: ١٤١.

(3) See: David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, p. 339.

(4) See: Hiroshi Takayama, Law and monarchy in the south (Italy in the Central Middle Ages), pp. 71-72.

ويستفيد منهم كثيراً فيما يفرضه عليهم من الضرائب. ولهذا أوجب على اليهود أن يحضروا في معابدهم الخاص الكنيس synagogue من أجل الاستماع إلى الخطب والمواعظ التي يلقيها المنصرون الرهبان، وقدم الملك دعمه ومؤازرته لهؤلاء الرهبان الدعاة، ورعى بنفسه في سنة ١٢٦٣م المناظرات التي كانت تقام بين علماء المسيحيين أو اليهود المتتصرين من جهة وبين حكامات اليهود^(١). وقد عامل المسيحيون اليهود في الأراضي الإسلامية المحتلة الجديدة في الأندلس بصورة أفضل من معاملتهم للمسلمين. فقد كان جيمس الأول يريد أن يستفيد من خبراتهم الجغرافية التي استفادوها من المسلمين، ومن قدرتهم على التحدث باللغة العربية لتشكيل حلقة وصل وجسر يربط بين مملكته وبين ممالك المسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط^(٢). وفي طليطلة Toledo، التي تقع في عمق قشتالة Castile، قام الملك ألفونسو العاشر King Alfonso X (١٢٢١م-١٢٨٤م)، برعاية عمليات ترجمة التراث العربي من خلال استخدام اليهود الذين لديهم دراية باللغة العربية واللغات الأوروبية^(٣). ومع أن معظم المسيحيين اعتبروا الأحياء اليهودية في مجتمعاتهم تشكل مجموعات غريبة، وكان بعض المسيحيين قد اعتبروهم في نواح كثيرة أسوأ من المسلمين، وأن دم المسيح يصرخ ضدهم، وأنهم يمثلون انحرافاً عن الحق، وأنهم أعداء الله الخونة^(٤)، إلا أنهم اعتقدوا أن وجودهم ضروري لأنه يشهد على حقائق المسيحية، ولم يعاملوهم في أكثر الأحيان بالقسوة نفسها التي عاملوا بها الهرطقات المسيحيين، واعتقدوا أنهم لا بد أن يتحولوا سلمياً في نهاية المطاف إلى المسيحية^(٥).

وهكذا، تداعت معظم مدن الأندلس من الشمال حتى الجنوب وصولاً إلى إمارة غرناطة التي كانت آخر معقل للمسلمين، والتي ظلت تقاوم وتتاور وتستجدي

-
- (1) See: David Abulafia, *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean*, pp. 339-341.
- (2) See: David Abulafia, *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean*, p. 340.
- (3) See: David Abulafia, *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean*, p. 340.
- (4) See: Jeremy Cohen, *Christian Theology and Anti-Jewish Violence in the Middle Ages: Connections and Disjunctions* (Religious Violence between Christians and Jews), p. 47, Jonathan Riley-Smith, *Christian Violence and the Crusades* (Religious Violence between Christians and Jews), p. 11.
- (5) See: Jonathan Riley-Smith, *Christian Violence and the Crusades* (Religious Violence between Christians and Jews), p. 11.

بقاها منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادي، وتحديدًا عام ١٢٣٢م، حتى سقطت نهائيًا في عام ١٤٩٢م. وبقي كثيرٌ من المسلمين تحت الاحتلال والاضطهاد الإسباني لعقودٍ طويلة حتى تم طردهم نهائيًا، وهاجر كثيرٌ من المسلمين واليهود منها، إمّا نحو البلاد الإسلاميّة أو نحو البلاد الغربيّة وخصوصًا فرنسا، وهناك تعامل الفرنسيون مع الموريسكيين باعتبارهم (Marranes) أي خنازير^(١). ولئن كانت الحروب الصليبيّة في المشرق قد أخفقت في تحقيق هدفها الرئيس، وهو البقاء والاستقرار الدائم في بلاد المسلمين، إلا أنها حققت هدفها المنشود في الغرب في الأندلس، ونجحت في إزالة الوجود الإسلامي والحلول محله، وذلك في اللحظة التي سقطت غرناطة في أيديهم، ورفعوا راية الصليب فوق مسجد الحمراء^(٢).

المطلب الثالث: التحالف مع المغول.

في عمق الكارثة العظيمة التي حلت بالمسلمين نتيجة الاجتياح والغزو المغولي الوثني المدمر، وفي شدة أتون الحروب الصليبيّة، حاول المسلمون عقد تفاهم بينهم وبين العالم المسيحي الغربي، بوصفهم أقرب دينيًا إلى بعضهم من المغول الوثنيين، وذلك من أجل تشكيل تحالف ضد عدو مشترك. ففي عام ١٢٣٨م أرسل الخليفة العباسي المستنصر بالله العباسي (١٢٤٢م) بعثة دبلوماسية إلى فرنسا وإنجلترا لتنسيق تحالف إسلامي-مسيحي لمواجهة الخطر الوثني المغولي، لكنّ البعثة فشلت في ذلك^(٣). لكن، في المقابل، حاولت الكنيسة الكاثوليكيّة التواصل والاتصال بالمغول، من أجل هدفين اثنين ينتهيان إلى هدف واحد، وهما: محاولة تنصيرهم، ومحاولة التنسيق معهم لتشكيل حلف مشترك ضد المسلمين. ومما حفز هذا التوجه داخل العالم المسيحي، هو أنه كانت هناك تلميحات شائعة بين المسيحيين أنّ المغول يميلون ويفضلون الديانة المسيحيّة بسبب زواج ملوكهم وقادتهم من مسيحيّات، وبسبب رعاية وعطف المغول على الديانة المسيحيّة وتفضيلهم لها على الإسلام، وهذا بالفعل ما كان يحدث في الواقع لكثير من ملوك وقادة المغول^(٤)، وكذلك بسبب تأصل العدواة المريرة في نفوس المغول تجاه المسلمين^(٥).

(١) انظر: سيمونا موناري، غرناطة في الأدب الأوروبي: أساسات وتحولات أسطورة أدبيّة (آن دوبرا بيشرو، مرآة الشرق)، ص: ١٥-١٧.

(٢) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٢٩ و ١٦٧.

(٣) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٧٧.

(٤) انظر: بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٤٧ و ٥٧-٥٨ و ٦١-٦٣ و ٦٥، هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٩٣٣، يان دوبراتشينسكي، أوروبًا

ولهذا فقط نشطت السفارات والإرساليات التنصيرية في القرن الثالث عشر الميلادي خصوصاً من جماعتي الرهبانية الدومنيكية والرهبانية الفرنسيسكانية التي كانت ترسلها المؤسسة البابوية إلى خانات المغول في الشرق الأقصى^(٢). يقول عالم التاريخ ديفيد مورجان David Morgan: "كان الباباوات متحمسون دائماً [للتحالف مع المغول]، لأغراض تنصيرية ولدواع صليبية على وجه التحديد، وتعامل أيضاً العديد من ملوك الغرب مع فكرة التحالف [مع المغول] بجديّة"^(٣). فقد دغدغت انتصارات المغول وفتوحاتهم في بلاد المسلمين، وتعاون المسيحيين الشرقيين معهم، الآمال العظام للمؤسسة البابوية في تحويل هذه القوة الطاغية التي لا تقهر إلى الإيمان المسيحي^(٤). فقد كان البابا اينوسنت الرابع Innocent IV (١٢٥٤م) يتابع باهتمام شديد أنباء تحالف المسيحيين الشرقيين مع المغول وقتالهم في صفوفهم ضد المسلمين، وما يحظون به من مكانة عند قادة المغول، فوجدها فرصة عظيمة من أجل تنصير المغول وكسبهم، فقام بإرسال مبعوثه وممثله البابوي الواعظ الفرنسيسكاني جان دي بلانو كاربيني Giovanni da Pian del Carpine (١٢٥٢م) في سنة ١٢٤٥م إلى الخان الأعظم للمغول في مدينة قراقورم في منغوليا عاصمة إمبراطورية المغول، فقابله سنة ١٢٤٦م وسلمه رسالة البابا التي يدعوها فيها إلى قبول الإيمان المسيحي^(٥). وفي سنة ١٢٤٧م كرّر البابا محاولته في استمالة المغول، فأرسل وفداً جديداً عبارة عن نخبة من أعضاء الرهينة الرومانيكية إلى إيران المحتلة لإقناع السلطات المغولية بالمسيحية^(٦). وتتابع الاهتمام بالمغول والتحالف معهم وتنصيرهم بعد ذلك، فقد تم إرسال جماعة متخصصة من الرهبان في سنة ١٢٥٠م إلى بلاد المغول في مهمة تنصيرية، ثم في عام ١٢٦٠م، وفي عام ١٢٧٥م تم إرسال مجموعات من التجار إلى بلاط المغول لتنصيرهم وللتنسيق معهم، ومن أجل هذا

والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٨٠، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٩٤.

(١) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٣١.

(٢) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٤٠٤-١٤٠٥.

(3) David Morgan, The Mongols, p. 184.

(٤) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٣٣.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٢-٢٩٣.

(٦) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٣٤، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٥.

الغرض قاموا بتعلّم اللغة المغوليّة، وحظوا برعاية من المغول^(١). وقام لويس التاسع Louis IX في عام ١٢٥٣م وقيل في ١٢٥٦م بإرسال الراهب الدومينيكاني ويليام دي روبرويك William de Rubruquis، في بعثة دبلوماسية وتنصيريّة إلى الخان العظيم المغولي، بعد أن وصله نبأ اعتناق ابنه المسيحيّة، وعلم المبعوث الدومينيكاني أنّ الخان الأعظم وعدّ نصارى المشرق، ومنهم هيتوم Hethum I (١٢٧٠م) ملك الأرمن، بأنّه سيوجه شقيقه هولاكو لمهاجم بغداد وتدمير عاصمة الخلافة العباسيّة^(٢)، وبعد تدمير العدو المشترك سيقوم المغول بإعطاء القدس إلى المسيحيين^(٣).

وحين هاجم المغول مدينة بغداد تحت قيادة هولاكو كما يقول يان دوبراتشينسكي: "استمرت فيها عملية الحرق وقتل السكّان سبعة عشر يومًا، ارتكبت الوحدات الجورجيّة [=المسيحيّة] أفظع المجازر، وقتل الخليفة أيضًا مع السكّان الآخرين. ولم يتعرض السكّان المسيحيون للمجزرة، وحول المغول قصر الخلافة إلى مقر لكاثوليكيوس المدينة"^(٤). ولما هاجم هولاكو مدينة حلب، رافق معسكر الجيش المغولي البطريك الأرمني مع هيتوم ملك الأرمن ليبارك هولاكو، فأبادها كما فعل بعاصمة الخلافة بغداد، وقام هيتوم بإشعال النيران في مسجد حلب الكبير بنفسه^(٥). ووصلت أنباء انتصارات هولاكو إلى أوروبا بفرح، فأحييت الآمال من جديد في المؤسسة البابويّة، وهرع البابا إلى إرسال وفدٍ من أجل تهنئة هولاكو بما حققه من نصر على الخلافة الإسلاميّة في العراق واحتلال عاصمتها في

(١) انظر: بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦١-٦٢، ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٦١-١٦٢.

(٢) يقول يان دوبراتشينسكي: "على الرغم من أنّ هولاكو كان بونديًا فقد تعاطف مع المسيحيين. لم تكن والدته وحدها مسيحيّة، بل زوجته... وعلى الرغم من عدم اعتناقه المسيحيّة، فهو يشعر بالكثير من الود نحو المسيحيين". أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٣١٧-٣١٨ وانظر ص: ٣٤٠. ويقول المؤرخ والمستشرق الفرنسي رنيه غروسيه: "كان لهيتون بشكل خاصّ القدر الكافي من بُعد النظر ليُدرك مدى أهميّة العنصر المغولي في الصراع الدائرة رحاه بين الصليب والهلل". موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ١٠٩.

(3) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 17-18.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٣١١-٣١٢ و٣١٦، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٧.

(٤) أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٣١٨.

(٥) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٩٤، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٣١٨.

بغداد^(١). وقبيل معركة عين جالوت في عام ١٢٦٠م، طلب السلطان قطز من الصليبيين في بلاد الشام المساعدات العسكرية لمواجهة المغول، لكنهم رفضوا ذلك، ولم يقدموا له سوى السماح له بالمرور^(٢).

ويمكن اعتبار سنة ١٢٦٠م هي البداية الحقيقية التي بدأ ينظر فيها المغول إلى المسيحيين كحلفاء حقيقيين ضد عدو مشترك وهو الإسلام، يُمكن أن يُسهل اتحادهما معاً عملية اجتياح بلاد المسلمين واقتسامها بينهم^(٣). ففي عام ١٢٦١م تحالف بوهيموند السابع Bohemond VII (١٢٨٧م)، حاكم أنطاكية وكونت طرابلس، مع المغول ضد المسلمين، وأصبحوا خطراً حقيقياً يُهدد البلاد الإسلامية المجاورة لهم^(٤). وعلم السلطان الظاهر بيبرس، من خلال شبكات التجسس القويّة الخاصة التي كان يملكها، أنّ هولاكو في عام ١٢٦٢م كان على اتصال دائم بإمارات الصليبيين فيما تبقى من بلاد الشام، وكذلك علم بالسفارة التي أرسلها المغول إلى باريس للتفاهم مع لويس ملك فرنسا للقيام بعمل مشترك^(٥). وفي سنة ١٢٦٩م أرسل الخان الأعظم للمغول قوبلاي خان بعثة إلى البابا، كان هدفها تنسيق عمل مشترك بين المغول وبين الدول المسيحية الغربية، وطلب من البابا أن يُرسل إلى بلاطه بمئة من رجال العلم والسياسة لتنسيق التحالف بين الطرفين^(٦). وعلم السلطان الظاهر بيبرس كذلك بالمباحثات التي كانت تجري في سنة ١٢٧١م في عكا، بين الأمير الإنجليزي إدوارد لونغشانكس Edward Longshanks (١٣٠٧م) -المعروف بالساقين الطويلتين الذي أصبح لاحقاً ملك إنجلترا، وكان ينوي القيام بحملة صليبيّة جديدة لكنه فشل في ذلك- وبين ملك المغول أباقا خان Abaqa Khan (١٢٨٢م)، الذي يصفه بيرتولد شبولير بأنه "عدو الإسلام والمسلمين"^(٧)، حيث طلب الأول إرسال قوة مغوليّة لمهاجمة البلاد الإسلاميّة، وهذا بالفعل ما حصل، حيث دخل جيش مغوليّ من عشرة آلاف

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣١٨.

(٢) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٩٦، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٢٣، رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ص: ٧٩.

(3) See: David Morgan, The Mongols, p. 183.

(٤) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٠٤.

(5) See: David Morgan, The Mongols, p. 183.

انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٤١، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٠٥.

(٦) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٩٣٤.

(٧) بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦٠.

مجند وهاجم بلاد الشام، وتكرّر التواصل والمراسلة بين أباقا خان وبين دول الغرب مراراً^(١)، ودعم المغول المتكرر للإمارات المسيحية الشرقية ضد المسلمين^(٢). كذلك في عام ١٢٧٤م قام البابا غريغوري العاشر Gregory X (١٢٧٦م)، بالتحالف مع المغول للقيام بحملة صليبية جديدة من أجل كسر شوكة الإسلام، لكنه مات دون أن يستكمل ذلك^(٣). وفي عام ١٢٧٩م تحالف الصالبيون في بلاد الشام والجورجيون المسيحيون مع المغول، حيث أرسل المغول من جانبهم جيشاً كبيراً لمهاجمة حمص مع بقية الجيوش المتحالفة، لكن دولة المماليك قامت بهزيمتهم^(٤). يقول بيرتولد شبولير: "أصبح الصليبيون ومن ورائهم حُماهم الفرنسيون؛ الأصدقاء الطبيعيون للإيلخان [أباقا خان]، وذلك لكونهم يتحدثون جميعاً في عدائهم لمصر، وقد بدأ رُسُل البابا والملك الفرنسي يظهران تباعاً في أملاك الإيلخان خلال هذه الفترة"^(٥)، لأنه "كانت آمال العالم المسيحي باحتواء الهلال الخصيب، تعتمد على المساعدة التي يُمكن أن يقدمها الإيلخانات في هذا المضمار"^(٦).

ويرى بعض الباحثين الغربيين احتمال قيام عيسى الطبيب، المنجم السرياني النسطوري في بلاط الإمبراطور المغولي قوبلاي خان (١٢٩٤م)، بإقناع قوبلاي خان بمنع نشر الدين الإسلامي في الصين في عام ١٢٧٩م، وقد كان عيسى هذا قد احتل مكانة عالية عند المغول، وكان في عام ١٢٩١م مستشار الشؤون المسيحية، وفي عام ١٢٩٧م وزيراً في بلاط المغول، وكذلك عملته عائلته في مكانه من بعده^(٧). وحين انتخب الفرنسيكاني نيقولا الرابع Nicholas IV (١٢٩٢م) لمنصب البابا الجديد في عام ١٢٨٨م، كان أول عمل قام به هو استقبال السفير المغولي، وإكرامه وتزويده بما يلزم، وقام أيضاً في العام نفسه بإرسال أحد أعضاء الرهبنة الفرنسيسكانية، وهو يوحنا مونتكورفينو John of

(١) انظر: بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦٤، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣١٦ و٣٢٠، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٥٩.

(٢) انظر: بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦٠.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٥٠، جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣١٧.

(٤) انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣١٨-٣٢٠، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٦٦.

(٥) بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦١.

(٦) بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦٣.

(٧) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٧٧.

Montecorvino (١٣٢٨م)، كأُسقف للشرق الأقصى وفي بلاط الإمبراطور المغولي، والذي أسس كنائس في بكين، ونجح في تنصير آلاف المغول، ومنهم قيادات مغوليّة رفيعة المستوى^(١).

وتجدد تعاون بين المغول والغرب الكاثوليكي حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، في عهد ابن أبقا خان، وهو أرغون Arghun (١٢٩١م)، ملك الدولة الإيلخانية في إيران والعراق. ففي سنة ١٢٨٥م قام ببعث رسالة^(٢) إلى البابا هونوريوس الرابع Honorius IV (١٢٨٧م)، يذكر فيها فضائل جده هولاكو وما فعل بالمسلمين، ويدعوه فيها إلى القيام بعمل مشترك ضد المسلمين^(٣). وفي عام ١٢٨٩م قام أرغون بإرسال عدة رسائل إلى البابا، وإلى إدورد ملك إنجلترا، ومنها رسالة عبارة عن جواب على رسالة أرسلها له فيليب الرابع Philip IV (١٣١٤م) ملك فرنسا، ومما جاء فيها: موافقته على عرض ملك فرنسا لتوحيد الجهود العسكرية في عملية مشتركة ضد المسلمين، وأنه قرّر أن يُسيّر جيشاً لهذا الغرض، وأنه وعدّ في حالة انتصاره على المسلمين أن ينتزع مدينة القدس من المسلمين ويسلمها إلى الصليبيين^(٤). واستمر غازان بن أرغون Ghazan Khan (١٣٠٤م) الذي تولى الحكم في إيران سنة ١٢٩٥م، على الطريقة نفسها، فقد أرسل موفداً إلى البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٣٠٣م)، من أجل تجديد العهد والتواصل والتعاون مع الغرب ضد المسلمين^(٥). وهكذا استمرت أحلام وآمال المسيحيين الغربيين في المغول؛ كي يحطموا قوة الإسلام، ويُدْمروا المسلمين الذين عجزوا عن تدميرهم، ويقوموا باحتلال القدس وبقيّة بلاد المسلمين وضمها تحت سلطانهم^(٦).

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٧٩ و ٣٨٢، جمال الوكيل، تطور

استراتيجية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ٣٩.
(٢) هذه الرسالة لا تزال موجودة حتى وقتنا الحاضر في صيغة ترجمتها، وهي محفوظة في مكتبة الفاتيكان.

انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٧٩.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٨٠-٣٨١.

(4) See: David Morgan, The Mongols, p. 184.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٨١.

(5) See: David Morgan, The Mongols, p. 185.

(٦) استمرت أماني المسيحيين الغربيين في القرن الرابع عشر الميلادي في المغول، فقد جاء في يوميات كريستوفر كولومبوس Christophorus Columbus (١٤٥١م-١٥٠٦م) الحديث عن مخطط رئيس أعيد من أجل استعادة الديانة المسيحية في المشرق، أي في البلاد الإسلامية كما حصل للأندلس عام ١٤٩٢م، وذلك من خلال تحالف قوى الغرب مع خان المغول الأعظم في الصين. انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٣٢٩.

المطلب الرابع: محاكم التفتيش.

محاكم التفتيش (Inquisition) مُشتقة من الكلمة اللاتينية (inquirere) التي تعني إجراء تحقيق^(١)، وكانت الكلمة في الأصل يُقصد بها الاستجواب القانوني^(٢)، ثم أصبحت علماً على مؤسسة تاريخية عُرِفَتْ باسم محاكم التفتيش والتحقيق، أنشأتها المؤسسة البابوية منذ القرن الثالث عشر الميلادي، واستمرت بعد ذلك لعدة قرون، وكان الهدف من إنشائها هو تحديد هوية المخالفين والهرطقة وملاحقتهم وإنزال العقاب عليهم، ومن أجل تحقيق هذا الغرض تحالفت الكنيسة الكاثوليكية مع الحكومات العلمانية في الغرب في العصور الوسطى، مما أدى إلى القضاء بلا رحمة على معظم المخالفين لكنيسة روما، من المسلمين واليهود والهرطقة المسيحيين^(٣). يقول المؤرخ الفرنسي المعاصر دومينيك إيغونا-برات Dominique Iogna-Prat، متحدثاً عن العدو الثلاثي للمسيحية في تلك الفترة من التاريخ: "العالم المسيحي واجه الهرطقة واليهودية والإسلام"^(٤).

ولعل بيان ماهية محاكم تفتيش بصورة دقيقة يكون من خلال ما يُعرَّفُها به الكاردينال المعاصر بول بوبار Paul Poupard، رئيس المجلس الحبري للحوار بين الأديان، حيث يقول: "محكمة كنسية منوطٌ بها قمعُ الهرطقة... وتدل على تحالفٍ ممتدٍّ على مدى عصورٍ عدّة، بين السلطة الكنسية والسلطة المدنية في ملاحقة الهرطقة... ثمَّ النظرُ إلى الهرطقة على أنها قوّةٌ سياسيةٌ هدامةٌ... واستَحَقَّتِ الموت بهذه الصفة... فالتحم السيفان الزمني والروحي في هذا النظام السياسي-الديني من المسيحية، الذي تشكل وحدة الإيمان فيه أساساً في وجه غير المؤمنين، ففساد الإيمان خيانة"^(٥).

وكان الاتجاه المتزايد في الأوساط المسيحية في هذا القرن الثالث عشر الميلادي يتمثل في رؤية: المخالفين للمسيحيين، واليهود، والمسلمين، باعتبارهم أتباع الشيطان^(٦). ووصف المنصر الشهير صمويل زويمر Samuel Zwemer

(١) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٦٨١.

(2) See: F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 836.

(3) See: Michael Pye, MacMillan Dictionary of Religion, p. 43, F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 836.

(4) Michael Lower, Tunis in 1270: A Case Study of Interfaith Relations in the Late Thirteenth Century, p. 506-507.

(٥) مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٦٨٢-٢٦٨١.

(6) See: David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, p. 3٤٣.

(١٩٥٢م) هذا العصر في أوروبا بأنه "كان عصر الهمجية الوحشية تجاه الكفار [=المسلمين]، واليهود، والزنادقة"^(١). ولهذا صارت محاكم التفتيش أداة مهمة في الحروب البابوية ضد الخارجين على سلطانها، حيث وجهت محاكم التفتيش الكاثوليكية إلى ثلاث فئات دينية مخالفة، وهي: المسلمون، واليهود، والطوائف المسيحية المخالفة، وسيرت إليهم كذلك الحملات أو الحروب الصليبية^(٢)، وذلك باعتبارهم جميعاً خارج "الخلاص المسيحي"، وأنهم هالكون في جنهم، حيث أعلن في مجمع لاتران الرابع Fourth Council of the Lateran عام ١٢١٥م بقيادة البابا إينوسنت الثالث أنه لا نجاة، ولا مغفرة خطايا، ولا حياة أبدية، لكل من هو غير كاثوليكي^(٣)، وكانت المؤسسة البابوية تعبر كل دين أو مذهب تؤمن به الشعوب الأخرى غير الكاثوليكية يُعتبر في عرقها هرطقة^(٤).

فأمّا اليهود فموقف المسيحيين منهم معروف ومشهور، وقد ذُكر ما حلّ بهم أثناء الحملات الصليبية^(٥). أما بالنسبة إلى المسلمين، فهم عند المؤسسة البابوية وأتباعها يعتبرون بحسب الرؤية اللاهوتية: كفّاراً^(٦)، والبابا أوربان الثاني وصف المسلمين في خطبه بأنهم: "الجنس الكافر"، "الجنس اللعين"، "الذي لا يليق به إلا كل احتقار"، قد "سقط في هاوية التعري عن كرامة الإنسان"، "أعداء الله"، وأنّ المسلم "عبد الشيطان"، إلى آخر تلك الأوصاف الدينية^(٧). وكانت الحملات الصليبية وهي تزحف تسمي المسلمين باسماء قبيحة، مثل: "أبناء العاهرات"، و"ذرية قابيل"^(٨). ومن العبارات الشعبية الشائعة عن المسلمين في الغرب في

(1) Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 9.

(٢) تفرق العديد من الدراسات والمصادر الغربية بين حملة صليبية وحرب صليبية، فالحملة ضد الهراطقة والوثنيين والمخالفين في أوروبا، والحرب ضد المسلمين في بلاد الشرق. انظر: يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٣٩.

(٣) انظر: دعاء محمود فينو، الحوار المسيحي الإسلامي قراءة في كتاب: التصورات اللاهوتية المسيحية عن المسلمين منذ مجلس الفاتيكان الثاني، ص: ١٥٧-١٥٨.

(٤) انظر: جمال الوكيل، تطور استراتيجيّة الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ٦٦-٦٧.

(٥) انظر: بوعمامة فاطمة، موقف الصليبيين من اليهود في العصور الوسطى، ص: ٢٩٨-٣٠٨.

(٦) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٥، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٤٧.

(٧) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٢٣، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٤٩.

(٨) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٥.

القرون الوسطى، التي كَرَسَتْ صورة نمطيّة مشوهة عن الإسلام وأهله، ما تضمنته قصيدة القسيس رولاند La Chanson de Roland، تلك القصيدة الدينية العدائيّة ضد المسلمين، والتي عُرِفَتْ باسم: (The Song of Roland)، وشاعت واشتهرت في الغرب في القرن الثالث عشر الميلادي، وتضمنت العديد من الأوصاف المشينة بحق المسلمين، مثل: "الكفرة" و"الكلاب"، و"الخنازير"، و"الفجرة"، و"لعنة رب السماء"، و"عبدة الأصنام"، و"لا يستحقون إلا أن يقتلوا"، و"حزب الشيطان"، "الخالدون في جهنم"^(١). ولهذا لا يُستغرب أنه حين دخل الصليبيون القدس أول مرة، وقاموا بذبح المسلمين، وهم يصيحون بهم وينادونهم بالمهرطقين والمجذفين والوثنيين^(٢)، وأعداء المسيح^(٣). وكان تنظيم الرهبانيّة الفرنسيكانيّة في القرن الثالث عشر الميلادي يمنع بشدة من أي اتصال أو مخالطة بين المسيحيين وبين المسلمين، لأنهم -كما يصفونهم- الكفرة وأعداء الرب^(٤).

لقد كانت أوصاف الإسلام أو المسلم الراسخة في الأوساط المسيحيّة الغربيّة في القرون الوسطى، وما بعدها، تتراوح ما بين هذه الأوصاف: العدو الكافر^(٥)، الكفرة الفجرة^(٦)، الوثنيين^(٧)، البرابرة^(٨)، الظلمات^(٩)، عبدة الشيطان^(١٠)، عبدة

(١) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٤٤، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحيّة في قيام الحملة الصليبيّة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٥٦.

(٢) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٦، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحيّة في قيام الحملة الصليبيّة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (القسم الأول)، ص: ١٩٩، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحيّة في قيام الحملة الصليبيّة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٤٠.

(٤) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٨٥.

(٥) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٨ و ٣٥، عبد العزيز شَهَبَر، اللقاء الإسلامي-المسيحي: المناظرات الموريكيّة-المسيحيّة، ص: ١٥٩ و ١٦٨، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحيّة في قيام الحملة الصليبيّة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٤٧ و ٢٤٩ و ٢٥٥ و ٢٥٨.

(٦) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٤ و ٢٤ و ٢٥، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحيّة في قيام الحملة الصليبيّة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٤٧.

(٧) انظر: يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحيّة في قيام الحملة الصليبيّة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٣٨ و ٢٤٤ و ٢٤٩ و ٢٥٧.

(٨) انظر: يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحيّة في قيام الحملة الصليبيّة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبيّة عن الإسلام، ص: ٢٤٩ و ٢٥٥.

الأصنام^(٣)، لا يدينون بالله ولا يعرفونه^(٤)، المسيح الدجال^(٥)، أعداء الرب^(٦)، ديدان حقيرة^(٧)، جنس حقير^(٨)، حزب الشيطان^(٩).

أما بالنسبة إلى المخالفين المسيحيين للمذهب الكاثوليكي، فقد وُجِدَتْ ظاهرة مهمة بين المسيحيين الكاثوليك في الغرب في القرون الوسطى، تفاقم خطرهما وتعاظم أمرهما خصوصاً في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث تكاثرت ظهور وانتشار المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية خصوصاً في الجنوب الفرنسي وشمال أسبانيا^(١٠)، وهم من تسميهم المؤسسة البابوية "بالهرطقة"^(١١)، وهم جماعات مناوئة للكنيسة الكاثوليكية، نشطوا أساساً في جنوب فرنسا وفي شمال أسبانيا،

(١) انظر: عبد العزيز شَهْر، اللقاء الإسلامي-المسيحي: المناظرات الموريسكية-المسيحية، ص: ١٥٤-
(٢) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١١ و ١٣ و ٢٤، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٤٩.

(٣) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١١، يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٣٨.

(٤) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٤.

(٥) انظر: أليكسي جورافسكي، الممهدات الفكرية للحوار الإسلامي المسيحي، ص: ١٤٨.

(٦) انظر: أليكسي جورافسكي، الممهدات الفكرية للحوار الإسلامي المسيحي، ص: ١٤٨، زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٩ و ٢١ و ٢٣.

(٧) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ١٩.

(٨) انظر: يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، ص: ٢٤٩.

(٩) انظر: زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ص: ٤٤ و ١٠٠، عبد العزيز شَهْر، اللقاء الإسلامي-المسيحي: المناظرات الموريسكية-المسيحية، ص: ١٥٥.

(١٠) وسبب تعرض هذه الدراسة للحديث عن حرب المؤسسة البابوية لهذه الطوائف إنما يأتي لأمرين، الأول: لأنه يُعزى إلى الإسلام التأثير عليها وتأثرها به. الثاني: أن المؤسسة البابوية رأت في تلك الطوائف خطراً داخلياً يهدد استقرار سيطرتها على أوروبا، وتمثل عائقاً أمام تحقيق الهدف الاستراتيجي الأسمى لها، وهو القضاء على الإسلام في المشرق وفي الأندلس.

(١١) تعود كلمة هرطقة (Heresy) إلى أصل يوناني قديم هو (hairesis)، وتعني: اختيار، أو مدرسة فكرية، أو طائفة، أو حزب. ومعناها منذ أواخر القرن الأول الميلادي: الطوائف المنتهكة، ثم أصبحت تشير إلى العقائد الخاطئة والانحرافات الدينية عن الكنيسة الرسمية، وتؤدي إلى الضلال والبدعة في الدين، ومن ثمّ التعرّض إلى الحرمان الكنسي. وعند ظهور الإسلام نظرت إليه المسيحية كهرطقة، يقول العالم اللاهوتي جان دي جاك واردنبرغ عن هذه الرؤية المسيحية تجاه الإسلام: "أنّ الدين الإسلام ليس هو الدين الحق، وفي أفضل الأحوال ما هو إلا مذهب من مذاهب الدين المسيحي، ولكن من المؤكد أنه ليس مستنداً إلى الوحي مثل المسيحية". انظر: مجموعة علماء سوفيين، المعجم العلمي للمعتقدات الدينية، الصفحة ٢٧٢-٢٧٣، نور الدين خليل، قاموس الأديان الكبرى الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، الصفحة ٣٣٥، جان دي جاك واردنبرغ، المستشرقون، الصفحة ١٨. Robert Royalty, The Origin of Heresy: A History of Discourse in Second Temple Judaism and Early Christianity, p. 3.

ومنها تمددوا وانتشروا في مناطق كثيرة في أوروبا، حيث سيطروا على كامل فرنسا الجنوبيّة، وانتشروا منها في سائر أوروبا، وقد كانت محاكم الكنيسة الكاثوليكيّة قبل تفشي هذه الظاهرة تحكم على المخالف لها بالحرمان والسجن في الأديرة، لكن الأمر اختلف كلياً بعد انتشار هذه المذاهب الدينية المخالفة للكاثوليكيّة، فتحول موقف الكنيسة من تفضيل الحوار والمناقشة والجدل، بعد أن أثبت فشله وعدم جدواه، إلى اللجوء إلى شن حروب صليبيّة عليهم، وإقامة محاكم تفتيش مارست السجن والتهجير والقتل ومصادرة الممتلكات^(١).

وقد ذهب كثير من الباحثين الغربيين إلى تأثير الإسلام والمسلمين في عقائد تلك الطوائف وفي أشعارهم وآدابهم وعلومهم، وهو تأثير عميق غير المعنقات والثقافات لدى المسيحيين في بلغاريا والبوسنة من جهة، وشمال الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا وصقلية من جهة أخرى^(٢)، مما أسهم في وجود أرضيّة خصبة وملائمة لظهور الفرق والحركات الإنشقاقية المناوئة والناقدة والمخالفة لكنيسة روما الكاثوليكيّة، وهو ما عُرِفَ في تاريخ المسيحية بـ: ظهور الهرطقة^(٣). فقد واجهت كنيسة روما طوائف عديدة، كطائفة الكاثاريين Cathars^(٤)، وطائفة

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٦٣، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٥١-٢٢٥٢. وانظر أيضاً: Michael Pye, MacMillan Dictionary of Religion, p. 43.

(٢) انظر: جورج قنواي، الثقافة في الحوار الإسلامي المسيحي، ص: ١٣-٢٠.

(٣) انظر مثلاً: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٩٠ و ١٥١-١٥٢ و ٢٢٨. وحتى الطائفة البروتستانتية، التي ظهرت متأخرة بالمقارنة بغيرها، كان للإسلام والمسلمين تأثيرهم عليها، وكانت علاقات المسلمين الأندلسيين (الموريكيين) بالبروتستانتين، تثير قلقاً بالغاً لدى المؤسسة البابوية الكاثوليكية بروما وأتباعها في إسبانيا، مما كان يضطرها للاستعانة بأحد المسلمين المرتدين (المتنصرين) لاستخدامه في مواجهة البروتستانتية وتثبيت عقائد الكاثوليك. انظر: عبد العزيز شهبر، اللقاء الإسلامي-المسيحي: المناظرات الموريكية-المسيحية، ص: ١٦٩.

(٤) الكاثاريون اسم جاء من الأصل اليوناني (كاثارُس)، والذي يعني طار، ويقال إنّ لهم أصلاً شرقياً، وكان أيضاً يُطلق عليهم في أوروبا اسم الألبيجنيين نسبة إلى مدينة ألبيجوا، وظهروا أول مرة في عام ١١٦٣م في مدينة كولونيا. نسبت إليهم الكنيسة اعتناق أفكار مانيّة، ومع ذلك فمن المؤرخين الغربيين من يرى أنّ اختلاف أصولهم الجوهرية عن المسيحية ضيّلة، وأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مسيحيين، وقد تميزوا بحب الفضيلة والطهارة في زمن ساد فيه الفساد والرذيلة، والتوق إلى طهارة إنجيليّة والابتعاد عن المادة، وتكثيف العبادة من صوم وصلاة وتقشف، وسموا أنفسهم بـ (فقراء المسيح)، وعُرفوا بالمتسامحين، وجذبوا بأخلاقهم العالية أنصاراً ومشايخين، وتابعهم أشراف جنوب فرنسا ورجال أعمال ومُلاك كبار، وكان لها بابا وكنائس وأساقفة، وانتشروا في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا وبلغاريا، ووجودا في ألمانيا وإسبانيا وإنجلترا. واستخدموا في احتفالاتهم اللغة البروفنسالية، وهي المنطقة المتأثرة كثيراً بعبادات وتقاليد وكلمات الثقافة الإندلسية المسلمة، وأعلنوا أنّ الكنيسة الكاثوليكية هي في الحقيقة (بغى بابل)، فلاحقهم الكنيسة بالحرق والتعذيب والسلب. انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص:

البوجوميليين Bogomils^(١)، وطائفة الوالدونيين Waldensians^(٢)، وكان أكثرهم تأثيراً وانتشاراً في أوروبا الغربية الطائفة الأولى، ويجمعها كلها -غير تسرب تأثير تعاليم الإسلام إليها بدرجات متفاوتة^(٣)- حياة الطاهرة والزهد، وانتقاد المؤسسة الكنسية التي غرقت في صراعاها الإقطاعي مع الملوك، وثرء رجال الدين الفاحش، ومن ثم عدم أهلية رجالات كنيسة روما^(٤).

ومنذ بدايات بزوغ تلك الجماعات، كان الحل الأمثل، في وجهة نظر رجال الدين الكاثوليك، لمواجهة هذه الظاهرة المتفشية في أوروبا هو إيجاد جماعات منضمة، تقوم على الحياة الجماعية المشتركة فيما بينها، وتمارس الوعظ بطريقة جماعية منضمة وبتنسيق فيما بينها وبين المؤسسة البابوية، وقد أكد أهمية وضرورة وجود تلك التنظيمات الجماعية وإضفاء الصبغة الشرعية عليها من قبل البابا؛ تفاقم تيار الجماعات الانشقاقية (الهرطوقية) وتمكنها في القرن الثالث عشر الميلادي^(٥). ففي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، الذي هو محل اهتمام هذه الدراسة،

٩٠٤، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٤٥-٢٢٥٠، كولن ولسون، سقوط الحضارة، ص: ١٨٥.

(١) البوجوميليون ينسبون إلى العالم والكاهن بوجوميل الصقلبي الجنوبي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، وقد ظهوروا مبكراً في بلاد البلقان، وأثروا في الحركات الانشقاقية في الغرب وفي تطورها، وقد تأثروا بالإسلام وبدعاة الإسلام الذين سعوا إلى ينشر دينهم في بلغاريا وما حولها في القرن التاسع الميلادي. وقد أثر البوجوميليون في الطوائف الأخرى كالكاثاريين وغيرهم. وظهرت هذه الطائفة الكبيرة بقوة في بلاد البوسنة الكاثوليكية، مع أن "الكنيسة الكاثوليكية مؤسسة في هذه الأماكن تأسيساً متيناً منذ نهاية العصور القديمة"، كما يقول الباحث الغربي المسيحي كالمان ساس، إلا أن الأكثرية هناك في القرن الخامس عشر الميلادي تتعاطف مع العدو المسلم أكثر من تعاطفها مع الكاثوليك". وقد عُدَّت المؤسسة البابوية بواسطة محاكم التفتيش شعوب البوسنة عذاباً أليماً، لكنهم -والكلام لكالمان ساس- "تعرّف أكثرية البوسنيين الذين صمدوا في الاضطهادات والمعارك إلى باراقليطهم [=النبي الذي بشر بقومه المسيح] في الرسول محمد"، فاعتنقت الإسلام. انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ٦٧٦-٦٧٨ و ٦٩٠ و ٦٩٢، والجزء: ٢، ص: ٢٢٤٥-٢٢٤٦.

(٢) الوالدونيون أو الباترينيون نسبة على رجل الأعمال المتدين بيتر والدو، تبرع بأملكه للفقراء وتجول يعظ الناس، وحاول تبسيط الإنجيل للعامة وحاول ترجمته. كانت جريمتهم العظمى هي انتقاد فساد رجال الدين وانغماسهم في الترف والثروات، وبيعهم وشرائهم الترفيات الكنسية، وانتهى إلى أن الكنيسة الكاثوليكية ليست هي الكنيسة الحقيقية. انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٤، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٥١، كولن ولسون، سقوط الحضارة، ص: ١٨٤-١٨٥.

(٣) وهذا الموضوع، أي: تأثير الإسلام في الطوائف والفرق والمذاهب الدينية المخالفة للكاثوليكية في الغرب، من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي، يستحق أن يُخصص له دراسة نقدية استقرائية تحليلية.

(٤) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٤٧.

(٥) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٤٥٥.

اجتهدت المؤسسة البابوية ممثلة في البابا إنوسنت الثالث في إرسال المنصرين لهداية طائفة الكاثاريين والوالدونيين وإرجاعهم إلى أحضان الكاثوليكية^(١)، وأُرسل إليهم دعاة الرهبانية الدومينيكانية لأجل تحقيق هذا الغرض بحكم تخصصهم المعرفي والعلمي، وعلى رأسهم مؤسس الرهبنة نفسه دومينيك Dominic (١٢٢١م)^(٢). ومنذ عام ١٢٢٠م كان البابا غريغوري التاسع من أهم من كرّس تنظيم الرهبانية الدومينيكانية، وساندها لاحقاً بتنظيم الرهبانية الفرنسيةكانية، لقيادة حملة تنصيرية هدفها، عن طريق الإقناع والنقاش، إرجاع الهرطقة في أوروبا إلى حظيرة المؤسسة البابوية، وقَدّم البابا دعمه على الدوام لهاتين الجماعتين من أجل تحقيق هذا الهدف^(٣). يقول القس الدومينيكي بيار ماساين Pierre Massein (٢٠١٧م): "أوكل البابا إلى دومينيك مهمة تنسيق جهود التبشير [ضد الهرطقة] وإدارتها، وشارك فيها أعضاء من رهبانيات أخرى، بيد أن اختيار دومينيك للاضطلاع بهذه المسؤولية كان إشارة إلى الثقة المُعطاة للمؤسسة الرهبانية الجديدة"^(٤).

لكن جهود دومينيك تكلفت بالفشل، إذ عجزت أساليبه الحوارية أن تُزعزع الهرطقة عن قناعاتهم العقديّة، وقد عبّر دومينيك نفسه في آخر موعظة^(٥) ألّاها على الهرطقة عن غيظة القتال، بسبب فقدته ثقته في أن صِدّق الإيمان والمعرفة ستتصرّان على الهرطقة^(٦). لقد كانت الشكوك أعظم من أن تواجهها الكنيسة ودعاتها المتسلحون بالعلم والمعرفة، وكان معظم رجال الكنيسة أنفسهم يُسرّون في نفوسهم الشك والريبة في صحة مبادئ مؤسستهم الدينيّة وتعاليمها، ولكنهم لأغراض سياسيّة لم يتسامحوا مع الأسئلة ولم يحتملوا، ولم يقبلوا بالمخالفة، لعدم ثقتهم في متانة بنیان عقائدهم^(٧)، فكان من الطبيعي أن تفشل تلك المهمات

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٢٨، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٥١.

(٢) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤-١٣١٥.

(٣) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٦.

(٤) مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٦.

(٥) لا تزال تلك الموعظة محفوظة حتى هذا اليوم، ومما جاء فيها، كما يقول دومينيك: "قد نصحتكم سنين عديدة بلا جدوى، باللطف والموعظة والرجاء والبكاء، ولكننا تبعاً للمثل القائل في بلادي: (حيثما تفشل البركات عن إتمام أي شيء، فمن الجائز أن تفقد للكلمات). سنثير عليكم الأمراء والأخبار الذي سوف - ويا للأسف - يسلحون الأمم والممالك ضد هذه البلاد، وبذا تفقد للكلمات حيث كانت البركات واللطف غير ذات جدوى". انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٨.

(٦) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٨.

(٧) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٢-٩٠٣.

الدعوية أو العلمية، فقرر البابا والمؤسسة البابوية اتخاذ أساليب حازمة وحاسمة، وهي استخدام السلطات الحاكمة وأذرعها لقوة السلاح، يسير فيه "الحوار العلمي" والقتل والمذابح جنبًا إلى جنب^(١). يقول المؤرخ الإنجليزي هربرت ويلز: "وقد تجلّى في الكنيسة عندما وافي القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مُدَعِّياتها بأكملها، وقد تجعله أثرًا بعد عين، فلم تكن تستشعر أي اطمئنان نفسي، وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان"^(٢). ويقول الباحث المسيحي الغربي في الديانات كالمان ساس Kalman Sasa: "وإذ تقوّت كنيسة الكاتاريين كمنظمة، بدت كخصم لدود كنيسة روما... وكان للعالم الكاثوليكي، تبعًا لذلك، كامل الحق، بل حتى الواجب، في أن يقوم برد فعل ثابت إزاء ما اعتبره بحق تحدّيًا له... [لقد] قلقت الكنيسة الكاثوليكية واستفرت أمام نجاح الهرطقة... ومنذ العام ١٢٠٠م ظهرت في مساح أكثر عنفاً، ومع ذلك فإننا الحملات الصليبية... لم تصلح إلا كمقدمة للتصفية النهائية للحركة الهرطوقية الكبيرة التي قاومت مدّة طويلة الهجمات الخارجية. [لقد] أغرقت الحربُ قسمًا كبيرًا من جنوب فرنسا في الدم"^(٣).

وقد بدأت التصورات الأولى لعمليات التحقيق والإدانة تتبلور من جهة البابا إينوسنت الثالث، ما بين سنة ١١٩٨م وسنة ١٢١٣م، وكانت تعبر عن شكل جديد لولادة هيئة عقابية جديدة، كانت مهمتها تتمحور حول ترتيب إجراءات تأديبية ضد رجال الدين المسيحيين المخالفين^(٤). يقول كالمان ساس: "انقل ملف الكاتاريين من أيدي اللاهوتيين، المدافعين عن الإيمان، إلى أيدي قضاة محاكم التفتيش"^(٥). ويقول هربرت ويلز: "شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة، وهي محكمة التفتيش البابوية. ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم في بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد في هذا الإقليم أو ذلك، ولكن إينوسنت الثالث وجد الآن في عقد الرهبان الرومانيكين الجديد أداة قوية للقمع، ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٣٢، هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٧-٩٠٨، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤-١٣١٥.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٣.

(٣) مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٤٩ و ٢٢٥١.

(4) See: Kocku von Stuckrad, The Brill Dictionary of Religion, p. 942.

(٥) مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٥٢.

إدارتهم^(١). وقد عُرِفَ البابا إنوسنت الثالث في التاريخ البابوي بحضّه على شن حرب صليبيّة قاسية على هذه الهراطقات، خصوصاً في جنوب فرنسا^(٢)، ففي عام ١٢٠٨م دعت البابويّة إلى حملة صليبية ضد الكاثاريين، وقد وعدت المشاركين فيها بغفران الخطايا^(٣)، وشنت حملة دعائية ضد تلك الطائفة التي صورت في تلك الدعايات التحريضية بصور القذارة والمرض، ودعا البابا إنوسنت الثالث: "فرسان المسيح للقضاء على خيانة الهرطقة وأتباعها، من خلال مهاجمة المهرطقين بحول الله وقوته، وذلك بثقة أكبر بكثير من أن تهاجم المسلمين؛ لأنّ الهرطقة أسوأ من المسلمين"^(٤). وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتهم الكاثاريين بالشرك والكفر والمعتقدات القديمة والتأثر بالعقائد المانويّة والغنوصيّة، والتفسير الرمزي لرموز المسيحيّة^(٥). وقد قُدِّرَ لهذا الحملة الصليبيّة على الهرطقة أن تنقلب إلى حملة سلب ونهب ولصوصيّة، أُفْلِتَ زمامها^(٦)، فكانت حملة قاسية وشرسة ضدهم، وأخذت تطاردهم، وتنفذ المجازر بحقهم في مناطقهم، وخلفت عشرات الآلاف من القتلى من الأطفال والنساء والشيوخ، من الهرطقة وغير الهرطقة دون استثناء وتمييز بينهم، وكان حجة المؤسسة البابويّة هي: "أنّ الله قادر على التمييز بين الأبرياء والمذنبين"، ومن قبض عليه من

(١) معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٩٠٨-٩٠٩، وانظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٦٨٢.

(٢) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٨٩٨.

(٣) انظر: يان دويراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٢٢٨.

(4) Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 9-10. And see: Ergun Mehmet Caner and Emir Fethi Caner, Christian Jihad, p. 183.

(٥) انظر: يان دويراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ١٤٨-١٤٩ و ١٥١-١٥٢.

(٦) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٨٩٨. وفي تصوّر لبعض ما كان يُمارس ضد هؤلاء المخالفين للمؤسسة البابويّة داخل أوروبا، يقول المؤرخ الإنجليزي هيربرت ويلز: "نرى مشهداً فيه البابا أنوسنت وهو يحرض على حرب صليبيّة ضد هاته الشيع العنيفة، ويأذن لكل نذل زعيم أو متشرّد أثيم أن ينضم إلى الجيش، وأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر، ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل، من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك فرنسا مسالمة، والقصص التي تروى عن هذه الحروب الصليبية تحكي لنا أضرب القساوسة والكنال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة استشهاد المسيحيين على أيدي الوثنيين. وهي فوق هذا تسبب لنا رعباً مضاعفاً لما هو عليه من صحّة لا سبيل إلى الشك فيها. كان هذا التعصب الأسود القاسي روحاً خبيثاً لا يجوز أن يُخالط مشروع حكم الله في الأرض... ولكنّ البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم في حق مقيم ضد من تحدّثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهنية". معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٩٠٤-٩٠٥.

الكاثاريين ورفض التوبة تم إحراقه، وحرقت ديارهم ومحاصيلهم وبساتينهم^(١). وفي عام ١٢٠٩م، دعا أرنو أموري Arnaud Amaury (١٢٢٥م)، وهو العالم الكاثوليكي الذي تم تعيينه مندوباً بابوياً ومحققاً، وقام البابا إنوسنت الثالث بإرساله في عام ١٢٠٤م إلى الكاثاريين، من أجل محاولة إقناعهم، لكن هذا المحاولة الإقناعية نتج عنها إبادة جماعية لكل الكاثاريين في مدينة بيزيرز Beziers، وقد كان شعار أرنولد أموري هو: "اقتلوهم جميعاً، فإنَّ الرَّبَّ يعلم من هم أتباعه". ولم يصل عدد الكاثاريين من سكان تلك المدينة إلى خمسمائة شخص، ولكنَّ المدينة برمتها دفعت ثمن الإدانة بالتبعية، فقد قُتلَ عشرون ألفاً، وهكذا بدأ القتل الجماعي للكاثاريين في القرن الثالث عشر الميلادي^(٢).

وكانت المؤسسة البابوية، في حربها ضد المخالفين لها من الهرطقة المسيحيين في أوروبا، تعتبر أنَّ الهرطقات هي التي تعوق الإعداد للحروب الصليبية ضد الإسلام، وتسنزف طاقات المسيحية في أوروبا. فقد وجدت روما نفسها أمام انتشار هائل وتفاقم متزايد للطوائف الهرطقية في أوروبا وشمال أسبانيا، إلى درجة أنَّ الكاثاريين وحدهم سيطروا على كامل فرنسا الجنوبية، مما جعلها تتجه نحو أساليب أشد صرامة وأكثر عقوبة في مواجهة هذا الخطر المهدد لسلطانها الروحية والدنيوية^(٣). ولهذا، صمَّمت المؤسسة البابوية على القضاء على تلك الطوائف بعنف وقسوة، ووعدت المقاتلين والداعمين للقتال ضد أولئك الهرطقة بمغفرة خطاياهم والجزاء نفسه الذي يُمنح لكل من يُحارب المسلمين^(٤).

ولأنَّ مهمة محاكم التفتيش تحتاج إلى عمل منظم ومُتكامل -يجمع ما بين (الصَّرامة والحزم والشدة والعنف) وبين (الدراية العلمية الدينية بخفايا الهرطقات)- فقد بدأت محاكم التفتيش بصورة رسمية ومتكاملة، تجمع العنف والمعرفة، ما بين سنة ١٢٣١م وسنة ١٢٣٣م، لمواجهة تفاقم الهرطقة خصوصاً طائفة الكاثاريين^(٥)، وذلك عندما قام البابا غريغوري التاسع بتكليف تنظيم جماعة

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٣٣-٢٣٥، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٥.

(2) See: Jonathan Riley-Smith, Christian Violence and the Crusades (Religious Violence between Christians and Jews), p. 10.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٦٣.

(4) See: Ergun Mehmet Caner and Emir Fethi Caner, Christian Jihad, p. 183.

(5) See: Kocku von Stuckrad, The Brill Dictionary of Religion, p. 942-943, Christopher Thomas Anglim, Encyclopedia of Religion and the Law in America, p. 177, F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 836.

الرهبانية الدومنيكانية بشؤون المحاكم الكنسية، فعمل ذلك التنظيم بجد لمكافحة الهرطقة والانشقاقات، وكان المحقق الأول في إسبانيا من هذه الرهبة، وخرّجت منها كبار المُحقِّقين في محاكم التفتيش طوال تاريخ الكنيسة^(١). ثم ألحق بهم البابا تنظيم جماعة الرهبانية الفرنسيسكانية، وأصبحت مهمة التفتيش والتحقيق موكلة إلى الرهبتين، لكن بصورة رئيسة إلى أعضاء الرهبة الدومنيكانية، ومنحهم البابا التفويضات اللازمة، ثم في عام ١٢٥٢م منحهم البابا إينوسنت الرابع الحق القانوني والرسمي في استخدام وسائل التعذيب في عمليات التحقيق، وتحول العمل الفردي في التحقيق والتفتيش إلى عمل تقوم به مكاتب متخصصة في ملاحقة ومقاضات المخالفين والهرطقة، وكانت محاكم التفتيش تعتمد شهادات المجهولين ضد المتهمين ولا تكشف عن أسمائهم، وفي الوقت نفسه منعت الدفاع عن الضحايا، ومارست ضدهم الانتهاك والعنف والتعذيب^(٢).

وكان العالم الدومنيكاني المعروف والملقب بالقديس توما الأكويني Thomas Aquinas يُنظر لمثل تلك الممارسة العنيفة تجاه المخالفين، فقد كان يُقرّر أنه فيما يتعلق بالهرطقة، فإنّ مما يجب مراعاة فيما يتعلق بجانبهم أنهم قد ارتكبوا خطيئة، بها لا يستحقون أن يُطرَدوا عن الكنيسة فقط عن طريق الحرمان، بل أيضًا يُطرَدوا عن العالم عن طريق الموت، لكنّ الكنيسة لأنها رحيمة فيمكن أن تخفف عنهم العذاب إذا تابوا، أما إذا أصرّوا وعاندوا، وفقدت الكنيسة الأمل في توبتهم، فإنها تطردهم عنها وتحرمهم منها، وتتركهم إلى المحكمة ليحرموا من البقاء في العالم بالموت^(٣).

وأصبحت تهمة الهرطقة سلاحًا فعّالاً بيد المؤسسة البابوية، تستخدمه ضد كل من تسول له نفسه أن يخرج عليها أو يخالفها^(٤). وهكذا شكّلت محاربة الهرطقة

(1) See: Charles Taliaferro and Elsa J. Marty, A Dictionary of Philosophy of Religion, p. 68, Kocku von Stuckrad, The Brill Dictionary of Religion, p. 942-943, F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 836.

وانظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٦٨١-٢٦٨٢.

(٢) انظر: بان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٧، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٥٢. وانظر:

Kocku von Stuckrad, The Brill Dictionary of Religion, p. 943, F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 836.

(3) See: Geoffrey Parrinder, The Routledge Dictionary of Religious and Spiritual Quotations, p. 172 and 174.

(٤) فقد أمر البابا غريغوري التاسع الجيش البابوي بالتوجه لغزو مملكة صقلية، التابعة للإمبراطور فريديريك الثاني المتهم بالهرطقة والمتأثر بالإسلام والمسلمين، لخوض حرب مقدسة وبابوية ضد أعداء المسيحية،

واجباً وإلزاماً في المناطق التي تحكمها المؤسسة البابوية أو تتبع لحكام يخضعون لسيطرتها والولاء لها، وأصبح المهرطق التائب محل شبهة وشك، ولا يحق له بعد عودته إلى أحضان الكنيسة أن يتولى وظيفة عامّة، ولا تقبل شهادته، ويتم تهجيرُه عن بيته السابق، ويُطالب بالمساعدة في ملاحقة بقية الهرطقة وإلقاء القبض عليهم^(١). ومما يحسن الإشارة إليها، أنه قبل قيام محاكم التفتيش هذه بشكل رسمي في القرن الثالث عشر الميلادي، كانت القضايا التي يتم فيها التفتيش والتحقيق مع المخالفين للكنيسة بأقل مخالفة، ممن تتعتهم عادة بالإلحاد والزندقة والهرطقة، نادراً ما تنتهي إلى الإعدام، بل يُعاقب الضحية بالحرمان ونحوه^(٢)، أما في هذا القرن فأصبح من المعتاد أن يُرى في مئات الأماكن وفي ساحات الأسواق في أوروبا أجساد المخالفين تحترق بالنار، وهم في العادة من الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة^(٣). وهكذا عُرفت محاكم التفتيش في التاريخ العالمي بأنها رمز التعصب الديني، وقمع المنشقين والمخالفين وغير المنتمين إلى المجتمع الكاثوليكي، وكانت سبباً رئيساً في الهجوم على الكنيسة الكاثوليكية لعنفها، ودافعاً لانتقاد المسيحية لعدم تسامحها^(٤).

مما اضطر الإمبراطور إلى العودة على الفور إلى وطنه وطرد الجيش البابويّ الغازي، وإبرام معاهدة سلام مع البابا في يونيو ١٢٣٠م. انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٠٩. Hiroshi Takayama, Law and monarchy in the south (Italy in the Central Middle Ages), p. 42.

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٣٦.

(2) See: F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 836.

(٢) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٩، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٢٥٢.

(4) See: Kocku von Stuckrad, The Brill Dictionary of Religion, p. 942 and 944.

المبحث الثاني:

استراتيجية المؤسسة البابوية الناعمة في التعامل مع الإسلام

وظفت المؤسسة البابوية مجموعة مهمة من الوسائل المتنوعة ضمن مسلك القوة الناعمة التي سلكتها في تعاملها مع الإسلام. وهذا النوع من الوسائل يعتمد على القوة الاقتصادية أو الجاذبية الثقافية، والتأثير الفكري، والإقناع العقائدي، من دون اللجوء إلى العنف والإكراه المباشرين، وتستخدم من أجل تحقيق أهداف سياسية أو دينية طويلة الأمد. وتتمثل غايتها في كسب العقول والقلوب، وبناء صورة إيجابية للكنيسة الكاثوليكية وصناعة الولاء لها، بما يخدم مصالحها ويضعف قوى الخصم معنويًا وثقافيًا، أو يُمارس الضغط على الخصم دون استخدام الوسائل الحربية المباشرة. ومن أهم الوسائل المتعلقة بمسلك القوة الناعمة التي استخدمتها المؤسسة البابوية كاستراتيجية لها في تعاملها مع الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، ما يأتي:

المطلب الأول: تنظيمات الجماعات الرهبانية (النشاط التنصيري وعلم

الدفاع الجدي).

كانت الروح السائدة بين أغلب المسيحيين في ذلك العصر، هي روح العُنف والقتال، فبعد السيف تقضى معظم الأمور، حتى ما يخص الدعوة إلى اعتناق الدين، أو كما يقول صمويل زويمر: "الروح التبشيرية الوحيدة التي كانت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين هي روح الصليبيين، رفعوا السيف وهلكوا به"^(١). ويقول المؤرخ هربرت ويلز: "كانت الكنيسة في القرن الثالث عشر تقوي وتبسط سلطتها القانونية في العالم، وتفقد سيطرتها على ضمائر الناس، وكانت تغدو أقل إقناعًا وأكثر عُنفًا"^(٢).

ولكن، في هذا القرن بالذات نشأت في الأوساط المسيحية الغربية ظاهرة بارزة ومؤثرة، ألقت بظلالها على كل من العالمين الغربي والإسلامي، وهي ولادة وتأسيس العديد من تنظيمات وجماعات الإخوة الرهبانية، وحظيت باهتمام كبير من قبل أهل القرون الوسطى^(٣). فخلال أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الميلاديين، ازدادت أعداد أفراد جماعات الرهبانيات ونفوذها، وشكلوا جيشًا دائمًا للدفاع عن عقائد المؤسسة البابوية من خلال أمرين، الأول: علم الدفاعات

(1) Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 18.

(٢) هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩١٢.

(٣) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٤٦، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ١٢٨-١٢٩.

والجدل المسيحي (Christian Apologetics and Polemics)، والثاني: الترويج لتعاليم المسيحية من خلال النشاط التنصيري (Christian Mission)، وبذلك أسهموا في بقاء جذورة الحياة الدينية في أوساط الجماهير الشعبية مشتعلة^(١).

وكانت تلك الأخويات (Religious Orders) تشترك في أمور كثيرة، وتختلف في أمور أخرى، مع كونها كلها أذرع خاضعة لإرادة ورعاية المؤسسة البابوية في روما، يتم تنسيق العمل بينها لخدمة أهداف تلك المؤسسة الراعية بهدف تأمين حركة مُنظمة للتنصير والدعوة، وجمعيتها في البداية سمة بارزة، وهي التظاهر بحياة الزهد والتقشف والفقر، إلى درجة أنهم عُرفوا في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية باسم (الرهبايات المستعظية)^(٢)، حيث اعتبروا الاستعطاء (التساول) مشاركة حقيقية لحياة الفقراء، وكان أبرز هذه الجماعات، هي: جماعة الرهبانية الدومينيكانية The Dominican friars وجماعة الرهبانية الفرنسيسكانية The Franciscan friars^(٣)، حيث كانت تلك الحركات والجماعات الأخوية تشترك في مظاهر الزهد، والتقشف، والفقر، والعزلة، وعدم الزواج، والتنظيم الحركي، والطاعة للرؤساء، والرغبة في تحويل جميع الناس إلى المسيحية، وتختلفت في نوع النشاط المركزي الذي تخصص فيه. فبعضها يركز في برنامجه على الجانب العلمي المعرفي من خلال التركيز على الدراسة والعلم؛ من أجل التمكن في علم الجدل والقدرة على الرد على المخالفين، وبعضها الآخر يطغى عليه الجانب السلوكي التطبيقي، فيولي مهمة العمل الرسالي البلاغي التنصيري جُل برنامجه ووقته.

(1) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 13.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٩ و٣٥٦.
(٢) المستعظية تعني المتسولة، وكانت المؤسسة البابوية تمقت الفقر والزهد والتقشف، ولا تعترف بمثل نمط تلك الجماعات، لكن حياة الترف والبذخ التي عاشها كثير من البابوات وكبار رجال الدين الكاثوليكي وصغارهم، وفي المقابل حياة الزهد والنزاهة والشرف وحسن الأخلاق التي عاشتها الجماعات المنشقة والمناوئة للكاثوليكية، ومدى جاذبية الأخيرة وإغرائها لعامة الناس وخاصتهم، اضطرت المؤسسة البابوية إلى أن تسمح بوجود مثل تلك الجماعات الرهبانية المتقشفة، كالدومينيكانية والفرنسيسكانية، بشرط أن تكون تحت هيمنة البابا وسلطته وطاعته المطلقة، وأن تمارس دعوة المهترئين إلى التوبة والعودة إلى كنيسة روما، مستغلين مظهر الزهد والفقر الذي لديهم. انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٤٥٨.

(٣) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٩، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٤٥٧-١٤٥٨.

ومن أمثلة الأخويات، البارزة في القرن الثالث عشر الميلادي، المتخصصة في علم الدفاعيات والجدل المسيحي وتزييف عقائد المناوئين لها: جماعة الرهبانية الدومينيكانية. أما أبرز الأخويات المشتغلة أكثر في جانب البلاغ والتتصير والعمل الميداني، فهي: جماعة الرهبانية الفرنسيةكانية. ونتيجة الجهود الحثيثة في الشقين: التتصير والجدل، ولدت الدراسات الإسلامية، أو ما عُرف بالاستشراق، في أوروبا القرون الوسطى، وكانت تلك الجهود والمهام -التي كان يقوم بمعظمها رجال الدين المسيحيين المُكرَّسة من أجل مهاجمة الدين الإسلامي- تعتبر مقدسة؛ لأنها تهدف إلى تقويض الإسلام بوصفه هرطقة، مما شكل صورة مشوهة عن الإسلام وتاريخه في الفكر والثقافة والأدب الغربي يصعب إزالته تمامًا^(١).

وجماعة الرهبنة الدومينيكانية تُنسب إلى الإسباني سان دومينيك (١٢٢١م)^(٢)، الذي وُلد حوالى سنة ١١٧٠م، ونشأ نشأة لاهوتية في طفولته، ثم صار نائباً لأسقف المدينة الإسبانية أوسمة أو أوسما Osma، التي عرفها العرب باسم وَخْشَمَة، وكان على اتصال لصيق بالمؤسسة البابوية الداعمة له، وصديقاً شخصياً للبابا غريغوري التاسع، الذي أعلنه قديساً سنة ١٢٣٤م^(٣). أسس دومينيك رهبانيته حوالى سنة ١٢٠٠م^(٤)، وقيل ١٢٠٦م^(٥)، وعُرفوا أولاً باسم (الواعظين) (Order of Preachers)^(٦)، ثم باسم (الوعاظ)، وسمحت كثرة أسفاره له برؤية المخالفين للمسيحية، من المسلمين والهرطقة، فشكل ذلك بالنسبة إليه همّاً كبيراً، ترجمه إلى تأسيس حركة متخصصة في الدعوة والحوار^(٧). حث دومينيك أتباعه على الدفاع والذود عن الإنجيل والتبشير به، ودحض شبهات الخصوم. وكانت هذه الأخوية يلبس أتباعها أردية سوداء، فعُرفوا بلقب (الرهبان السود) بسبب لون

(١) انظر: محمد أسد (ليوبولد فايس)، هذه شريعتنا: ومقالات أخرى، ص: ١٤٠.

(2) See: Charles Taliaferro and Elsa J. Marty, A Dictionary of Philosophy of Religion, p. 68.

(٣) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٣ و١٣١٧.

(4) See: F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 497.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٣١.

(6) See: Charles Taliaferro and Elsa J. Marty, A Dictionary of Philosophy of Religion, p. 68.

(٧) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤-١٣١٦.

أرديتهم، كما عُرِفُوا في فرنسا باسم **اليعاقبة (Jacobins)**^(١). انضم إليهم الأكاديميون والقانونيون وأساتذة الجامعات، ووصل كثيرٌ منهم لمناصب قيادية كبرى في المؤسسة البابوية وغيرها، مثل كونهم رعاة الملوك الشخصيين، أو كهان الاعتراف الخاصين بالملوك أو البابا نفسه^(٢). وقد لعب هذا التنظيم دورًا مهمًا في مواعظ رجاله وخطبهم في الدعوة والدعاية إلى الانضمام إلى الحملات الصليبية ضد المسلمين وضد الفرق المسيحية المخالفة للكنيسة الكاثوليكية^(٣). وفي عام ١٢٠٦م أعلن البابا **إينوست الثالث** ثناءه على هذه الطريقة^(٤)، ثم في عام ١٢١٥م وعدَّ بالتصديق على تأسيس هذه الجماعة، لكنه مات، فخلفه البابا **هونوريوس الثالث**، الذي صادق عليها في عام ١٢١٦م^(٥).

وقد تميزت **الرهبنة الدومينيكانية** عن غيرها بأنها، مع جوار اهتمامها بالعمل الوعظي التصوري، تُمارس هداية الآخرين عن طريق الإقناع العقلي من خلال الجدل العلمي^(٦). ولهذا، كانت **الرهبنة الدومينيكانية** تركز على الجانب العلمي والمعرفي، وتقوم بإعداد دعائها إعدادًا علميًا تمكنهم من أن يكونوا قادرين بجدارة على خوض النقاشات والجدال مع المسلمين واليهود والهرطقة^(٧)، ولهذا عُرِفَت هذه الجماعة عبر التاريخ المسيحي بأنها جعلت وسيلتها الرئيس لنشر المسيحية هي التدريس الأكاديمي عبر الجامعات والمدارس العقديّة العامّة، الذي قام به كبار اللاهوتيين الكاثوليك، وقد حققت نجاحًا كبيرًا في إنشاء المدارس والبعثات في جميع أنحاء حدود المسيحية وخارجها خلال العصور الوسطى^(٨). ولهذا جعلوا هدفهم الرئيس من الرهبنة هو التعليم، فأسسَ **سان دومينيك** معهدًا علميًا في

(1) See: F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 497.

(٢) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٧-١٣٨، هيربرت ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٨.

(3) See: Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 12.

(٤) انظر: يان دوبراتشيسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٣٠، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤.

(٥) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٥.

(٦) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٧، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤-١٣١٦.

(٧) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤-١٣١٩.

(8) See: F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 497, Charles Taliaferro and Elsa J. Marty, A Dictionary of Philosophy of Religion, p. 68.

المدينة الفرنسية طولوشة أو تولوز Toulouse، ومعهدًا علميًا أيضًا في فرنسا في برويل Prouille، معتمدًا القواعد السلوكية التي قررها أوغستين Augustine (٤٣٠م)، وقد نال ذلك المعهد اعتراف البابا إينوست الثالث، ونالت الجماعة إعجابه، لأنهم في نظره استعدوا للمعركة من أجل "كسب العقول"، وبهذا أسهم هذا التنظيم في الحركة الفكرية الكبرى التي اشتهرت باسم بـ (الحركة المدرسية)^(١).

انتدب دومينيك من قبل البابا إينوست الثالث من أجل الذهاب إلى الهراطقة ودعوتهم، في محاولة لهدايتهم وإقناعهم بالعدول عن مخالفة الكنيسة الكاثوليكية، قبل الانحياز إلى خيار السيف، لكنه فشل فشلاً ذريعاً في مهمته تلك^(٢). وقد نشط دومينيك في نشر أتباع طريقته في كل مكان يقدر أن يصل إليه، فأرسل مجموعة من تلاميذه إلى أماكن متفرقة، إلى: باريس وروما والأندلس، وقام بتوزيع أتباعه حول العالم، فأسست بيوت كثيرة لاحتواء أعضاء الرهبة الدومينيكانية في مدن كثيرة في أوروبا^(٣)، وكلفه البابا هونوريوس الثالث بتنظيم دير نسائي في روما وهو دير القديس سكستس، وأسس كذلك بتكليف من المؤسسة البابوية رهبانية نسائية أخرى للهرطوقيات التائبات، فكانت النواة الأولى للراهبات الدومينيكيات^(٤).

ووصل دعاة وتلاميذ دومينيك إلى أماكن بعيدة، حيث نشطوا في كييف في أوكرانيا، وأسسوا فيها ديراً وكنيسة، وكذلك في آسيا الصغرى وأوروبا الشرقية^(٥). وفي العام الذي توفي فيها مؤسسها، وهو عام ١٢٢١م، كانت الرهبة الدومينيكانية تمتلك ستين ديراً، وأسسوا في فترة قصيرة معاهد علمية في عواصم ومدن أوروبا الكبرى^(٦). وانتشر أتباع دومينيك في أنحاء كثيرة من العالم، وبنوا الكنائس والأديرة والبيوت، ووسعوا نشاطهم شرقاً وغرباً^(٧). لقد كانت أهم مساهمة لدومينيك في العمل الرهباني هي إعداد أول قانون لرهبانيته، وكانت

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٣١-٢٣٢ و٢٩٨.

(٢) انظر: هريبرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٧-٩٠٨، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤.

(٣) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٦، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٣٢ و٢٦٠.

(٤) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٤-١٣١٦.

(٥) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٢ و٢٩٤.

(٦) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٦-٢٩٧.

(7) See: F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 497.

بمثابة الخطوة القانونيّة التي كرّست مثل هذا النمط من الحياة والعمل^(١). يقول الباحث يان دوبراتشينسكي: "ارتبطت [الرهبنة الدومينيكانية] بالدراسات على نحو وثيق، على عكس ما كان سائدًا في أوساط رجال الإكليروس الذين افتقروا إلى المعرفة اللاهوتيّة. [لقد] تخرّج من أديرة الدومنيكان جيش من المجادلين القادرين على مواجهة أي كان بحجج يصعب دحضها"^(٢).

وكان من أهم أعلام هذه الرهبنة العالم اللاهوتي والقانوني رامون دي بينيافورت Ramon de Penyafort (١٢٧٥م)، وهو الرئيس العام للرهبنة الدومينيكية والمقرب كثيرًا من المؤسسة البابويّة، وكانت الأولوية القصوى بالنسبة إليه هي البعثات التنصيريّة بين المسلمين في شمال إفريقيا واليهود القطلونيين Catalan، لكن ليس بالطرق الوعظيّة المعتادة، بل بالطرق التعليميّة الخاصّة. حيث سعى - من أجل تحقيق ذلك الهدف بفعالية عالية - إلى إنشاء مدارس تُعلّم اللغات، ومنها: اللغة العربيّة والعبريّة، بأعلى مستوى، بحيث يمكن للمنصرين الرهبان تعلّم ودراسة التلمود اليهودي، وكتب الحديث النبوي؛ ليتمكنوا من جدال أعدائهم الحاخامات اليهود أو العلماء المسلمين بمصطلحات أصحابها، ولعل هذا كان أحد أهم إنجازات رامون دي بينيافورت^(٣). ويأتي بعده في الأهميّة، صاحبه ورفيقه توما الأكويني (١٢٧٤م)، أحد أشهر أعضاء هذه الرهبنة، وهو الذي اشتهر بمعرفة الفلسفة ومقدرته في الجدل، واعتبر أنه من أكبر لاهوتيي المسيحيّة، حيث أسهم بفعاليّة في تطور التيار المدرسي، وفي شروحات كتب المسيحيين المقدّسة، وشرح كتب أرسطو، وأدخل فلسفة أرسطو إلى الفكر الكنسي، ولمكانته المحوريّة في الفكر الكنسي لقب بـ (معلم الكنيسة) و (المعلم الملائكي)، وقد ترك مؤلفات مهمة، منها: (الخلاصة اللاهوتيّة)، و (الخلاصة في الرد على الأمم)، وهو الكتاب الذي رد فيه على المسلمين^(٤). ومن رجالات هذا التنظيم كذلك، الراهب الدومينيكاني ريموند مارتي Raymond Martini (١٢٨٤م)، الذي كان مُتحمّسًا

(١) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٣١٦-١٣١٧.

(٢) يان دوبراتشينسكي، أوروبّا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٢٩٦.

(3) See: David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, p. 341.

(٤) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ٩٣٣-٩٣٥، يان دوبراتشينسكي، أوروبّا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٢٥٦ و ٢٩٨ و ٣٠٠. ولم يقف دور توما الأكويني عند التنصير والجدل العقلي، بل تعداه إلى دور سياسي، حيث تم إرساله في عام ١٢٢٦م، أثناء الإعداد للحملة الصليبيّة السادسة، إلى القدس بصفة وصي على العرش. انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبّا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٢٥٦ و ٢٩٨ و ٣٠٠.

ويتمنى تحويل إفريقيا إلى كاثوليكية وكان يسعى إلى كتلة المسلمين، وقد حرصَ ملك فرنسا الملك لويس التاسع على غزو تونس لأجل تحويلها إلى المسيحية^(١). وقد أَلَفَ كُتُبًا حجاجيةً، مثل: كتاب (خنجر الإيمان في صدور المسلمين واليهود)، يُكثَرُ فيها من استشاداته بفلسفة العرب، وكتاب (الخلاصة ضد القرآن)، وكتاب (حطام اليهود)، وله كتابٌ تنصيريٌّ يحمل عنوان: (المختصر في تعليم الدين المسيحي)، قام بترجمته إلى اللغة العربية^(٢). وكذلك حاول كتابة معارضة لأسلوب القرآن الكريم، يريد من ورائها إثبات تمكنه وقدرته في اللغة العربية، فجاءت إثباتًا على سخافه وركاكته^(٣).

لقد أثبت تنظيم الرهبنة الدومنيكانية في العصور الوسطى جدارته ومهنيته في العمل والتنظيم، ولهذا تم استخدامه بصورة مكثفة وخاصةً بالمقارنة إلى غيره من تنظيمات الرهبانيات، من قبل المؤسسة البابوية، من خلال اعتماد رجالته في أعمال كثيرة، من مثل: عمليات التنصير والوعظ، والتحريض والمشاركة في الحروب الصليبية، وفي تحصيل رسوم التجنيد المالية، وكمحققين في محاكم التفتيش، وإرسالهم في البعثات الدبلوماسية^(٤).

أما تنظيم جماعة الرهبنة الفرنسيسكانية فقد أسَّسه الإيطالي سان فرانسيس أو القديس فرنسيس الأسيزي^(٥) Francis of Assisi (١٢٢٦م)، وعُرفوا باسم

(١) انظر: مصطفى حسن محمد الكنائي، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس (١٢٧٠م/٦٦٨-٦٦٩هـ)، ص: ١٥٢، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، الجزء: ٢، ص: ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) انظر: عدنان خلف الدراجي، التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية: خلال عصر سلطنة غرناطة (١٢٣٨م-١٤٩٢م)، ص: ٣١٢-٣١٤، علي بن إبراهيم النملة، المستشرقون والتنصير: دراسة للعلاقة بين ظاهرتين، مع نماذج من المستشرقين المنصرين، ص: ١٤٨-١٤٩.

(٣) انظر: علي بن إبراهيم النملة، المستشرقون والتنصير: دراسة للعلاقة بين ظاهرتين، مع نماذج من المستشرقين المنصرين، ص: ١٤٨-١٤٩.

(4) See: F. L. Cross, E. A. Livingstone, The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 498.

(٥) التقى المؤسسان دومينيك وفرنسيس ببعضهما، وأبدى الأول إعجابه الكبير بزهده وفقر رهبنة الأخير، ويُذكر أنه اقترح عليه توحيد الرهبتين. انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٨. وبحضى فرنسيس الأسيزي بمكانة عالية لدى المؤسسة البابوية حتى هذا العصر، ففي عام ١٩٨٦م، أعلن البابا يوحنا الثاني عن رغبته في التحضير لحركة عالمية لكافة الأديان للصلاة من أجل السلام، وقام بتنظيم اللقاء في ساحة فرنسيس الأسيزي، وسط إيطاليا. انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٨٩-١٩٠. وفي عام ١٩٧٩م اختاره البابا يوحنا الثاني، كما يقول القس الفرنسي جاك فيدال: "شفيعاً لعلم البيئة، شريك التكنولوجيا المعاصرة، هكذا يخدم هذا الرجل الصغير، قديس الأزمنة كلها، سرَّ الخلاص لعالم جديد". مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥٤.

(الرهبان الرماديين أو الشهب) نسبة إلى لون أرديتهم، وكانوا يلبسون الصوف الخام علامة مميزة لهم^(١)، وعُرفوا أيضاً باسم (الإخوة الصغار) أو (الإخوة الأصاغر) لاحتقار أنفسهم^(٢). بدأ فرنسيس الأسيزي تدينه النقشفي بتقبيل المجذومين^(٣)، وقد بالغ هو وأتباعه في تمجيد الفقر والعوز، إلى درجة أنهم أصبحوا متسولين شحاذين، وكانوا يلبسون الثياب الخشنة والملطخة، ويمشون حفاة الأقدام، ويقفون على فتات الخبز، ويبحثون عن أكثر الأماكن عفناً وقذارة، كمذابح الماشية، ليقيموا فيها، ويسكنون -في الغالب- أكواخاً متواضعة^(٤). وقد نجح في تجنيد أشد الناس حماساً وتعصباً، وانضمت إلى جماعته أسماء بارزة ومؤثرة، وقد كان تركيز هذه الرهبة على العمل المباشر من خلال ممارسة الوعظ والتبشير، مع زهد في العلم وعدم ثقة في المعرفة^(٥). توجه فرنسيس إلى روما عام ١٢١٠م، وقابل البابا إينوست الثالث الذي أبدى إعجابه به لكن بدرجة أقل من إعجابه بتنظيم جماعة الرهبة الدومينيكانية، لكن البابا إينوست الثالث لاحقاً منحه موافقة شفهية على ممارسة الوعظ^(٦)، ثم في عام ١٢٢٣م صادق البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢٢٧م) على طريقة الرهبة الفرنسيسكانية، على أساس وجود ثلاث مراتب للأعضاء: الوعظ، والقساوسة

(١) انظر: ويليام بولك، الصليبية والجهاد، ص: ٦٥، ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٧-١٣٨، هيربرت ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٨، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٥٧-٢٥٩.

(٢) انظر: هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٦، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦٢-٢٦٥ و٢٩٨، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ٦٨٨.

(٣) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥١.

(٤) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٧-١٣٨، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥٠، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦٠. لم تتم طويلاً حالة الفقر والنقص التي بدأت بها هذه الجماعة، إذا حاز كثير من رجالها على الشهرة والثراء والمكانة الاجتماعية والسياسية العالية، واستبدلوا الأكواخ القذرة بالقصور الفارهة والجميلة. انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٣٨.

(٥) هذه النظرة الترهيدية في العلم والمعرفة، التي كرّسها المؤسس لقناعاته أن المعرفة تُشكك في الإيمان بالإنجيل، تغيرت لاحقاً تحت ضغط الواقع واجتياح المعرفة أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي، وبسبب تأثيرات المعرفة العربية الإسلامية التي أثرت في قيام الجامعات في أوروبا، فغيرت تلك النهضة موقفه الرهبة الفرنسيسكانية من المعرفة، وأخذ أعضاؤها يملؤون الجامعات طلاباً وعلماء، وصارت أديرتهم مراكز علمية لاهوتية. انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦٢-٢٦٥.

(٦) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥٢، يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦٠ و٢٦٢.

المصلين، والعاملين^(١). لم يخلف فرنسيس الأسيزي تراثاً عقدياً أو علمياً يُذكر، سوى رسالته الوحيدة في المناجاة بعنوان (إلهي وكلي/ Deus meus et omnia)، وكانت أهم مساهمة له في العمل الرهباني هو إعداد قانونٍ لرهبانيّته، كتبه مرتين في سنة ١٢٢١م، ثم في سنة ١٢٢٣م، ووافق عليه البابا هونوريوس الثالث^(٢). وبعد وفاة سنة ١٢٢٦م بسنتين، أي في عام ١٢٢٨م، أعلنه البابا غريغوري التاسع قديساً للكنيسة^(٣).

وقد توسعت نشاطات هذه الجماعة، وتوسع معها نفوذها بصورة سريعة، ففي العام الذي مات فيه مؤسسها كانت الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة تمتلك ١٢ مقاطعة، ثم ارتفع العدد إلى ٣٢ في عام ١٢٣٩م، واستطاعت هذه الجماعة التأثير الكامل في حياة المجتمع المسيحي في العصر الوسيط^(٤). وقد انضم إليهم مشاهير المؤثرين في العالم المسيحي، من أمثال بونافينثورا Bonaventure (١٢٧٤م)، الذي عيّنه البابا غريغوري العاشر كاردينالاً وأسقفًا على مدينة ألبانو الإيطالية، وكان عالم لاهوت معروفًا، وواعظًا متمكنًا، ترك إنتاجًا ضخماً في العقيدة، من شروح وتفسيرات على أسفار العهد القديم والعهد الجديد، ومعالجة الأسئلة الشائكة حول مواضيع مُشكلة مثل: الثالوث، وعلم المسيح، وكمال الإنجيل، وتولى زعامة الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة، ولأهمية دوره لقبّ بالمؤسس الثاني للرهبانيّة الفرنسيسكانيّة^(٥). ومع أنّ جماعة الرهبنة الفرنسيسكانيّة هي من أواخر التنظيمات التي ظهرت في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أنها كانت من أقواها، حيث بلغت الأديرة التابعة لها في سنة ١٢٦٤م ثمانية آلاف دير، أمّا عدد الرهبان المنضمين إليها من العلماء والوعاظ، فكان يبلغ نحو مائتي ألف شخص^(٦). وبلغت هذه الجماعة من النفوذ والتمكين، أن انتخب زعيم رهبنتها غيرولامو ماسكي Girolamo Masci (١٢٩٢م) في عام ١٢٨٨م البابا الجديد وتسمى باسم

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٢٦٠ و ٢٦٢، هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٩٠٦-٩٠٧، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٤٥٨ والجزء: ٢، ص: ٢٠٥٢.

(٢) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥١-٢٠٥٢.

(٣) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥٣.

(٤) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، الجزء: ٢، ص: ٢٩٨-٢٩٩ و ٤٢٢، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥٣.

(٥) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ٧٤٣.

(6) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 13-14.

وهربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، الجزء: ٣، ص: ٩٠٦.

نيقولا الرابع، وبذل نشاطاً عظيماً في تكثيف أعمال التصير، خصوصاً بين المغول في الصين، ونجح نجاحاً ملحوظاً هناك^(١).

وقد دَرَسَ الباحث الغربي المتخصص كريستوف ماير Christoph Maier جماعات الرهبان الفقراء المتسولين هؤلاء خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وكيف أنَّ المؤسسة البابوية قد نَظَّمت ونسَّقت عمل تنظيمات الرهبنة الدومينيكانية والفرنسيسكانية للتحريض والتبشير بالصليب. ويكشف هذا الباحث عن الدور المحوري والهام الذي لعبته تلك جماعات وتنظيمات الرهبانية في تنظيم حملات التجنيد من أجل الحروب الصليبية، وذلك من خلال تحليل الباحث كريستوف ماير لمجموعة من العِظَاط الصليبية التي تم تحريرها فيما بين عامي ١٢٦٨م و١٢٦٩م، لدعم حملة صليبية ضد المسلمين^(٢). وكانت الخطب والمواعظ والرسائل والأبحاث التي ألَّفها كبار علماء ووعاظ جماعات الرهبنة الدومينيكانية والفرنسيسكانية في القرن الثالث عشر الميلادي مادة أساسية استخدمها أتباع تلك الجماعات في ذلك القرن والقرون التالية أيضاً^(٣). وكان أعضاء الرهبنتين الدومينيكانية والفرنسيسكانية يُمارسون دوراً خطيراً ومحورياً في تشكيل الوعي في أوروبا المسيحية، من الناحية السياسية والدينية وتوجيه أعمال الفكر (التنظير) والتصير (الممارسة). فقبل انعقاد مجمع ليون الثاني Second Council of Lyon (١٢٧٢م - ١٢٧٤م) في ليون في جنوب فرنسا والذي تزعمه البابا غريغوري العاشر، وهو المجمع المسكوني الرابع عشر للكنيسة الكاثوليكية، تم تقديم أربعة تقارير مهمة، عبارة عن رؤية استراتيجية وتوصيات، قدَّم ثلاثة منها أعضاء ينتمون إلى هاتين الجماعتين، فالتقرير الأول أعدّه الفرنسيكاني جيلبرت تورناي، ملخصه أنَّ فشل الحروب الصليبية يعود إلى عنصرين أساسيين، وهما: الخلافات الداخلية بين ملوك المسيحيين، وفساد أوضاع رجال الدين. أما التقرير

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٧٩ و ٣٨٢. استمرت أعمال هذه الرهبنة التصيرية نشطة خصوصاً بين من تسميهم كنيسة روما بالهراطقة، في أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية، حيث فضَّل كثيرٌ من الأوروبيين الشرقيين خصوصاً في بلغاريا ومقدونيا والبوسنة اعتناق الإسلام منذ القرن الرابع عشر الميلادي، فخشيت المؤسسة البابوية انتشار ذلك بينهم، فأرسلت الفرنسيكانين ليكسبوا من يستطيعوا كسبهم إلى جانب الكاثوليكية. انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ٦٨٨.

(2) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. ٦.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٩٩.

(3) See: Christoph Maier, Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross, p. 1٤.

الثاني فأعدّه الأسقف برونو أولوموسينسيس Bruno Olomucensis (١٢٨١م)، وملخصه عدم جدوى الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، وأنّ الأجدر هو توجه الحملات الصليبية داخل أوروبا لمواجهة الوثنيين والهرطقة. أما التقرير الثالث فأعدّه الدومينيكاني فيلهلم الطرابلسي William of Tripoli (توفي بعد ١٢٧٣م)، وفحواه أنّ الأوروبيين قد فشلوا في هزيمة المسلمين ولم ينتصروا عليهم بالسيف أبدًا، وأنّ المؤهل الوحيد لهزيمة المسلمين هم المغول، ومن ثمّ فلا بد من تحويلهم إلى المسيحية عن طريق العمل التصيري في أوساطهم. أما التقرير الرابع والأخير، فقد أعدّه الدومينيكاني همبرت الروماني، أكدّ فيه فشل الحملات الصليبية، وفشل العمل التصيري بين المسلمين، وأنّ الأولى توجيه التصير إلى الوثنيين في أوروبا^(١).

وقد نشطت عمليات البعثات التصيرية في هذا القرن بشكل كبير جدًّا، وازدهر بناء الكنائس وتجديد القديم منها تحت الحكم المغولي الجديد لبلاد المسلمين الشرقية، الذي منَحَ المسيحيين الحرية في الدعوة إلى دينهم وتشبيد معابدهم وتجديدها، بل قدم لهم الدعم الكبير حتى وُصِفَ هذا العصر بأنه العصر الذهبي للمسيحية، في مقابل ممارسة المغول الاضطهاد والإقصاء للمسلمين على وجه الخصوص^(٢). يقول شبولير: "إنّ نظام الحكم هذا الذي ظهر أنّه يؤيد المسيحية بجلاء تام، قد أثار حماسًا وآمالًا كبيرة في أوروبا الغربية، وقد تتبعت القوى الأوروبية المختلفة هذا التطور باهتمام تام، فازدهرت تجارتهم مع إيران، وكانت الطرق التجارية تمر بمملكة أرمينيا الدنيا الصديقة"^(٣).

وكانت رغبة جماعة الرهبنة الفرنسيسكانية في التصير عارمة جدًّا وحماسهم كبير، حيث ذهبوا لأقصى بقاع الأرض. وفرنسيس الأسيزي هو أوّل من جرب أن يُنصّر المسلمين في القرن الثالث عشر الميلادي في بلاد المسلمين، حيث سافر لعدة بلدان إسلامية من أجل هذا الغرض^(٤)، منها مصر وفلسطين ولم يتعرض له المسلمون بأذى، مع أنّ ذلك كان في أوج الحروب الصليبية^(٥). ففي سنة ١٢١٢م اتخذ فرنسيس الأسيزي قرارًا بالذهاب إلى ملك مراکش الموحيدي محمد بن الناصر بن يعقوب المنصور (١٢١٣م)، المعروف في الغرب المسيحي

(١) انظر: يان دوبراتشيسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٥٧-٣٥٨، محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي: نقد العقل التاريخي، الجزء: ١، ص: ١٥٢.

(٢) انظر: بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦٦-٦٧.

(٣) بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: ٦٧.

(٤) انظر: نقولا زيادة وآخرين، صورة الإسلام في الخطاب الاستشراقي، ٢٩٥-٢٩٦.

(٥) انظر: هربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٠٦.

بميرامولين، لمحاولة إقناعه بالتحول إلى المسيحية، لكن مرضه حال دون ذهابه^(١). وفي عام ١٢١٩م، وهو يصاحب الحملة الصليبية الخامسة التي توجهت لاحتلال مصر، ذهب بجرأة جنونية إلى سلطان مصر الأيوبي الكامل (١٢٣٨م) ليقنعه باعتناق المسيحية، ولإثبات حقيقة الإنجيل، فاستقبله السلطان وأصغى إليه "بأدب ومزيد من الاحترام" لكنه لم يقتنع بأقواله^(٢). وفي عام ١٢١٧م أرسل فرنسيس عضواً في جماعته إلى بيت المقدس للتصير، وذهب بنفسه هناك، ومع إخفاقاته الشديدة في تصير مسلم، فقد حقق نجاحات ملحوظة في القدس في كسب أعضاء جدد إلى جماعته من بين المسيحيين هناك^(٣). وفي سنة ١٢٥٠م ذهب رهباناً من هذه الجماعة إلى بلاد المغول في مهمة تصيرية، في رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر والجوع والموت. ومن أشهر الحكايات التي تروى في محاولة هؤلاء تصير المغول؛ ما حدث في عام ١٢٦٠م، حيث رحل تجاراً من البندقية من آل بولو، وهما نيقولا وأخوه مافيو، وتعلما لغة المغول ووعدا إمبراطورهم بالرجوع وإحضار مائة من القساوسة المسيحيين. وفي عام ١٢٧٥م، رجعا إلى المغول ومعهما الرحالة المعروف ماركو بولو، ابن نيقولا، وحظوا جميعاً برعاية المغول^(٤).

كذلك، كان هناك رامون لول Ramon Llull أو Raymond Lulle (١٢٣٢م-١٣١٦م)، وهو كاهن فرنسيسكاني لا يعرف الملل أو الكسل، وهو مؤلف غزير الانتاج ومُنَصِّر قطلوني، ينحدر من عائلة برشلونية لها مكانتها^(٥)، يقول عنه

(١) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦١.

(2) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 18.

وانظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٥٠-٢٥١ و٢٦١، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٠٥٣-٢٠٥٤.

(٣) انظر: يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٢٦١-٢٦٢، محمد وليد المصري، دولة الفاتيكان ودورها في الحوار الإسلامي المسيحي، ص: ٤٠. في عام ١٩٨٦م اختار البابا يوحنا الثاني فرنسيس الأسيزي رمزاً للسلام العالمي، وأعلن عن إقامة صلاة عالمية لكافة الأديان للصلاة من أجل السلام في ساحة هذا القديس، في أسيزي Assisi مدينة وفي وسط إيطاليا، حضرها ١٥٠ رئيساً دينياً عن اثنتي عشرة ديانة، وتكرر ذلك اللقاء في عام ١٩٩٣م، برعاية البابا نفسه. انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ١، ص: ١٨٩-١٩٠.

(٤) انظر: ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ص: ١٦١-١٦٢، هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء: ٣، ص: ٩٣٥ و٩٣٧، دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحية، الجزء: ٢، ص: ٣٥٠.

(5) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 33, Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 19.

يوجين ستوك Eugene Stock (١٩٢٨م)، سكرتير التحرير في جمعية الكنيسة التبشيرية (CMS)، بوضوح: "إنه لا توجد شخصية بطولية في تاريخ المسيحية أكثر من رايموند لول، أول وربما أكبر المبشرين للمحمديين"^(١). واعتبره مؤرخ التنصير جيمس دنيس James Dennis (١٩١٤م) من رواد التنصير الأوائل^(٢)، ومن أمثلة المنصرين القاريين العظماء في العصور الوسطى^(٣)، وجعل منه القس الدومينيكانى جوردن جالغو^(٤) Jordan Gallego "شخصية فريدة نموذجية"^(٥)، ووصفه روبرت إليوت سبير Robert Elliott Speer (١٩٤٧م)، الزعيم الديني والمنصر الأمريكى المشيخي، بأنه: "أول مبشر عظيم للمحمديين... لقد كان أعظم المبشرين الذين خرجوا إلى العالم الإسلامى، وكان أحد الشخصيات البارزة في الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر"^(٦).

عاش رامون لول حياة لا تخلو من الفساد والتهتك والخلاعة، مليئة بالشكوك والقلق^(٧)، ثم أصبح متصوفاً، وأراد أن يجمع بين المعتقدات المشتركة لليهود والمسيحيين والمسلمين ولاهوت التثليث، لكنه في عام ١٢٧٤م في ميورقة زعم أنه مرّ بتجربة صوفية روحية "أفنته بأنه يجب أن يحول مواهبه إلى هداية الكفار" إلى المسيحية^(٨). فلم يدخر بعدها وسعاً في مخاطبة الملوك والبابوات وجميع أصحاب النفوذ الذين بوسعهم أن يساعدوه من أجل تنصير المسلمين^(٩)، ومن ذلك أنه قدّم اقتراحاً مهماً إلى المؤسسة البابوية، يشتمل على شقين أساسيتين، وهما: الأول: توحيد ودمج الجماعات العسكرية المقاتلة، مثل: فرسان

وانظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٦، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامى في العصور الوسطى، الجزء: ٢، ص: ٣٩٦.

- (1) Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. XXI.
- (2) See: Samuel Zwemer, Arabia: The Cradle of Islam, p. 1.
- (3) See: James Dennis, Christian Missions and Social Progress: A Sociological Study of Foreign Missions, Vol. 2, p. 44-45.
- (4) See: International Congress: Christian Humanism in the Third Millennium: The Perspective of Thomas Aquinas, p. 99.

(٥) مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٩.

- (6) Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. IX and XI.
- (٧) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٧.

- (8) See: David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, pp. 342-343.

(٩) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٧.

الهيكل أو فرسان المعبد^(١)، وفرسان الإسبتارية Knights Hospitaller أو فرسان القديس يوحنا، فرسان التيوتون الألمان Teutonic Knights، وهو اقتراح سيق أن أكد أهميته البابا غريغوريوس العاشر في مجمع ليون عام ١٢٧٤م^(٢). أما الشق الثاني، فهو: إنشاء مدارس لدراسة اللغات الشرقية^(٣). وقد قطعت الخطط التبشيرية، بفضل حماس رامون لول وعدم يأسه، شوطاً مهماً حين أصبحت ذات بُعد مؤسسي، فأقيمت لها المدارس والمعاهد المتخصصة في اللغة العربية وغيرها من اللغات^(٤)، وجعل تعلم اللغة العربية شرطاً لمن أراد التخصص في التصير، فتم إنشاء مدارس للصبيان المسيحيين لتعلم العربية، مثل معهد ميرامار Miramara في ميورقة الذي أسسه ملك ميورقة جاك الثاني Jacques II de Majorque (١٣١١م) بناءً على طلب رامون لول، وحظي بموافقة البابا يوحنا الحادي والعشرين في العام ١٢٧٦م، وأسند الإشراف عليه إلى رامون لول، وهو معهدٌ مُعدّ لتعليم الصبيان اللغة العربية، وتهيئتهم وتدريبهم على عمليات التصير بين المسلمين واليهود^(٥). وفي مجمع فيينا Vienne الكنسي بفرنسا، الذي عُقد في عام ١٣١١م، كان له دور أساسي في صدور مرسوم بإنشاء كراسي اللغات الشرقية، وخاصة اللغة العربية، في جامعات أكسفورد وباريس، وغيرها من المدن التي كانت تحت هيمنة البابوية^(٦)، كان الهدف منها محاولة إقناع المسلمين، بواسطة لغتهم العربية، ببطلان دين الإسلام وأحقّة المسيحية^(٧).

وبجوار إنشاء مدرسة اللغات للمنصرين، بذل جهده رامون لول بنفسه من أجل تعلم اللغتين العربية والعبرية، وقام بتأليف كتب كثيرة جداً، فشكّلت أعماله تلك

(١) انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، الجزء ٢، ص: ٣٩٦. وكانت هذا الجماعة جماعة دموية ومتطرفة، وهي كما يصفها المؤرخ الغربي جيمس واترسون: "أكثر أعداء المسلمين عناداً وقسوة". انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٣٥.

(2) See: Pierre Dubois, The Recovery of the Holy Land, p. 57.

(3) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 33.

(4) See: Samuel Zwemer, Arabia: The Cradle of Islam, p.239.

(٥) انظر: محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي: نقد العقل التاريخي، الجزء ١، ص: ١٥١-١٥٢، مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء ٢، ص: ٢٥٥٧.

(6) See: James Dennis, Christian Missions and Social Progress: A Sociological Study of Foreign Missions, Vol. 3, p. 420.

وانظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء ٢، ص: ٢٥٥٨.

(٧) انظر: محمود حمدي زقزوق، الدّينُ للحياة، ص: ١٨٣.

لوحدها مكتبة صغيرة^(١)، حيث ألف ما يُقارب ٢٥٠ كتابًا لا يزال معظمها مخطوطاً^(٢). ومن ضمن تلك المجموعة الكبيرة، ألف رامون لول كتابًا يحمل اسم: (الأمم والحكماء الثلاثة)، عرّض فيها اعتقادات الديانات الثلاث، وقد وُصف عرّضه بأنه يُشير إلى معرفته ودرايته إلى حد ما بتلك الأديان^(٣). يقول القس الدومينيكاني المعاصر جوردين جالجو: "دعاه الله إلى رسالة هي العمل على هداية المسلمين واليهود، وبخاصة المسلمين، إلى الديانة المسيحية، فقطع ارتباطه بالعالم وهجر بيته. بدا أن العرب في زمنه يُشكلون خطرًا اجتماعيًا دينيًا على بلاده، بل خطرًا فكريًا بسبب الاهتمام الذي يشهده في باريس فكر ابن رشد اللاتيني، وسيكون العرب شغله الشاغل"^(٤). ويقول ديفيد صموئيل أبو العافية: "حاول رامون لول تطبيق ما بشر به. فقام بتأليف كُتُبٍ مُختَصَرٍ مُختَصَصٍ من أجل التجار الذين يزورون مدينة الإسكندرية وبقية الأراضي الإسلامية الأخرى، ويشرح فيه الطريقة التي يحسن بها الدخول في مناقشة مع السُكّان [هناك] حول المزايا الخاصة بالمسيحية والإسلام"^(٥).

ولهذا، حاول رامون لول بنفسه أن يُمارس التنصير بين المسلمين في ديارهم، وكان مُقْتَبِعًا أن استرجاع الأرض المقدسة لن يكون عن طريق الحروب والسيف، بل عن طريق تنصير المسلمين وكسبهم بالدين^(٦). فكانت محاولته للعبور إلى شمال أفريقيا في بداية تسعينيات القرن الثالث عشر الميلادي (ما بين سنة ١٢٩١م إلى سنة ١٢٩٣م)، وكان عمره وقتئذٍ ستًا وخمسين سنة^(٧)، حيث قام

(1) See: James Dennis, *Christian Missions and Social Progress: A Sociological Study of Foreign Missions*, Vol. 3, p. 407.

(٢) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٧.

(3) See: David Abulafia, *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean*, pp. 343.

(٤) انظر: مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٧.

(5) David Abulafia, *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean*, pp. 343.

(6) See: Samuel Zwemer, *Arabia: The Cradle of Islam*, p. 407, Samuel Zwemer, Raymund Lull: *First Missionary to the Moslems*, p. 45.

يقول رامون لول: "أرى العديد من الفرسان يتوجهون إلى الأراضي المقدسة من وراء البحار، ويفكرون في أنه يمكنهم الاستيلاء عليها بقوة السلاح؛ ولكن في نهاية المطاف يتم تدميرهم جميعًا قبل أن ينالوا ما يعتقدون أنهم سيمتلكوه. ولهذا، فيبدو لي أنه لا يجب محاولة احتلال الأرض المقدسة، إلا بالطريقة التي اكتسبتها أنت حواروك، أعني بالحب والصلاة، وبسكب الدموع والدماء".

Samuel Zwemer, Raymund Lull: *First Missionary to the Moslems*, p. 52-53.

(7) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: *First Missionary to the Moslems*, p. 81 and 86.

بحمل كتبه ومتاعه علي متن السفينة، لكنه فشل بسبب خوفه ورعبه من الذهاب هناك، حتى صار محل سخرية ممن كانوا معجبين بكلماته الدينيّة الحماسيّة من أجل التنصير^(١). لكنه بعد فترة من الزمن، استطاع أن يتغلب على مخاوفه وأن يسافر إلى تونس، مُحملاً بكتبه ومتاعه، وأعلن هناك للمسلمين، كنوع من الخداع والحيلة من أجل جذبهم انتباهه إلى نقاشه، أنّه مستعد لاعتناق الإسلام إذا استطاعوا إقناعه بحقيقته. هذه المهاترات التي أثارها جلبت انتباه السلطات الحاكمة له، فتم وضعه على متن سفينة وترحيله، وأمره بعدم العودة وإلا كانت عقوبته الموت. فغادر إلى نابولي Naples وقبرص من أجل التنصير ونشر تعاليمه، ثم عاد مرة أخرى إلى شمال إفريقيا عام ١٣٠٧م، لكن إلى مدينة بجاية، وهناك وفي وسط سوق المدينة وقف أمام الناس يهاجم الإسلام، فتم القبض عليه، وزعم أمام السلطات الحاكمة أنّه لا يخاف من الموت في سبيل هداية الكفار، لكن أطلق سراحه. وفي عام ١٣١٤م عاد مرة أخرى إلى تونس ليمارس التنصير بين المسلمين^(٢). يقول عنه صمويل زويمر: "رايموند لول كان المبشر المسيحي الأول إلى المحمديين... وكان أيضاً المسيحي الأول والوحيد في وقته الذي شعر بمدى إلحاح الدعوة إلى تبشير العالم المحمدي. وكانت حجته المستمرة مع المعلمين المسلمين، هي: الإسلام كاذب، ويجب أن يموت... وكان هدفه المركزي العظيم هو الإطاحة بقوة الإسلام كنظام، وذلك من خلال البرهنة المنطقية على ضلاله. [لكنه] فشل في هذا... [لكن] حماسه الذي لا يعرف الكلل سيكون دائماً أنموذجاً وإلهاماً للمبشرين بين المسلمين"^(٣). وفي موضع آخر يقول: "إنّ حياة رايموند لول تحمل لنا رسالة اليوم، وتدعونا إلى إعادة العالم المحمدي إلى المسيح"^(٤).

ومع زيارات رامون لول المتكررة إلى بلاد المسلمين، وما ألفه من كتب كثيرة لأجل هذا الغرض، وما بذله من تحريض للملوك والبابوات والوجهاء لتنصير

(1) See: Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 83-84, David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, pp. 343-344.

(2) See: David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, pp. 343-344, Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. 88-96.

وانظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبيّة: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، الجزء: ٢، ص: ٤٣٢-٤٣٣.

(3) Samuel Zwemer, Arabia: The Cradle of Islam, p. 314-315.

(4) Samuel Zwemer, Raymund Lull: First Missionary to the Moslems, p. XXII.

المسلمين، إلا أن كل هذه الجهود الحديثة انتهت دون تحقيق ما كان يحلم به، فهذا هو رامون لول نفسه يقول مُعبراً عن شعوره بالفشل والخيبة التي انتابته في نهاية حياته: "أنا عجوزٌ فقيرٌ مُزْدَرى وبلا عَضْد، شَرَعْتُ في عمل يفوق قدرتي، وطفْتُ في جزءٍ كبيرٍ من العالم، وأعطيتُ الكثير من المُثل الصالحة، ولكن قلائل هم الذين أحبوني وعرفوني"^(١). ولم يثبت -كما يؤكد ذلك الباحث البريطاني ديفيد صموئيل أبو العافية- أن جهوده نجحت في تنصير شخص واحد: من المسلمين^(٢)، أو من اليهود^(٣). مع أن رامون لول كان أكثر المنصرين في القرن الثالث عشر الميلادي حماساً للتنصير في بلاد المسلمين^(٤). لكن القس الدومينيكاني المعاصر جوردن جالجو، يرى أن رغبته ونواياه وبعض ما قام به رامون لول كان كافياً للثناء عليه، حيث يقول: "حَسْبُنَا أن نذكر بأنه رغب في أن يَنَمَّ الدعوة إلى حرب صليبية كبرى، وأن تُنظَّم رسالة عامّة من أجل هداية المسلمين، وأن تصدر إدارة بابوية تفرض إنشاء معاهد تُعلِّم اللغات الشرقية تمهيداً لنشر الإنجيل"^(٥).

المطلب الثاني: التقارير والأبحاث للمشاريع المقترحة للتعامل مع الإسلام.

في القرن الثالث عشر الميلادي لم يكن عمل المؤسسة البابوية في مواجهتها للإسلام -من خلال الحروب الصليبية أو الحصار الاقتصادي أو الإرساليات التنصيرية- عملاً اعتباطياً أو عشوائياً أو مجرد نزوات وقتية عابرة، بل كان عملاً منظمًا وممنهجًا، يقوم كثيرٌ منه على دراسات وأبحاث وتقارير تتعلق بالشأن الداخلي كمشاريع إصلاحية فكرية وعقائدية، وإمّا مشاريع تتعلق بالشأن الخارجي كالتجارة والحصار الاقتصادي. وكانت الكنيسة تقوم بإعداد تلك التقارير والدراسات، أو تطلب من الآخرين تقديمها، أو يبادر رجال الدين الكاثوليك تطوعاً من أنفسهم إلى تقديمها إلى المؤسسة البابوية من أجل تبنيها ودعمها، وتحويلها من مخططات ومشاريع على الورق إلى مشاريع حقيقية يتم تنفيذها على أرض الواقع.

(١) مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٧.

(2) See: David Abulafia, The Great Sea: A Human History of the Mediterranean, pp. 343.

(3) See: David Abulafia, The Italian other: Greeks, Muslims, and Jews (Italy in the Central Middle Ages), p. 235.

(٤) انظر: نقولا زيادة وآخرين، صورة الإسلام في الخطاب الاستشراقي، ٢٩٥.

(٥) مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، الجزء: ٢، ص: ٢٥٥٧.

والمشاريع التي عملتها المؤسسة البابوية أو عُمِلَتْ لها كثيرة جدًا خلال قرون العصور الوسطى، لكن أهم المشاريع التي قُدِّمَتْ في القرن الثالث عشر الميلادي أو لها اتصال قريب بتلك الحقبة الزمنية، ما يأتي:

المشروع الأول: جاء على هيئة كتاب يحمل عنوان: (استرداد الأرض المقدسة/Liber de recuperatione terrae sanctae) أعدّه النائب العام لجماعة الرهبانية الفرنسيسكانية في الأرض المقدسة، الراهب الفرنسيسكاني فيدنتيوس البادوي Fidentius of Padua (توفي بعد ١٢٩١م)، بناءً على طلب البابا عريغوري العاشر Gregory X (١٢٧٦م) في سنة ١٢٧٤م في مجمع ليون Lyon، ولتحقيق هذا الغرض قام برحلات استكشافية في بلاد المسلمين من أجل الاطلاع على واقعهم، ورصد حياتهم وشؤونهم، وجمع المعلومات اللازمة، ولم ينته منه إلا في عام ١٢٩١م، فقام بتقديمه وقَدَّاهُ إلى البابا نيقولا الرابع أثناء حصار عكا وقبيل سقوطها^(١). وكان ملخص مشروعه يقوم على ثلاث أفكار تمهيدية تسبق المرحلة الحاسمة والرئيسية، وهي الحل العسكري، وهي، **الأولى:** أهمية معالجة الانشقاقات بين قادة الدول المسيحية، فالانقسامات بين القوى المسيحية -في نظره كما تذكر ذلك الباحثة الإسرائيلية سيلفيا شاين Sylvia Schein (٢٠٠٤م)- كانت السبب الرئيس في ضعف الجبهة الصليبية، حيث غابت المحبة والتعاون بين المسيحيين القاطنين في الأرض المقدسة، وافتقروا إلى قيادة موحدة. فهذا التشردم أدى إلى نزاعات مستمرة، كل فئة كانت تخوض حربًا مختلفة، وتعد هدنة منفردة، وتتنازع فيما بينها، مما قوّض وحدة المسيحيين في مواجهة الإسلام^(٢). **والثانية:** التشويه المتعمد لصورة الإسلام والمسلمين والمعتمد على الأكاذيب والأساطير، وذلك من أجل أن يصل إلى تبرير القضاء عليهم والقسوة في ذلك، يقول المؤرخ المعاصر والباحث في تاريخ العلاقة المسيحية-الإسلامية في القرون الوسطى جون تolan John Tolan: "ولإثبات أن هذا الأمر مشين حقًا [=وجود القدس بأيدي المسلمين]، وأن الحملة الصليبية هي الحل الوحيد الممكن، كان لا بُدَّ له من تصوير السراقفة [=المسلمين] بأبشع صورة ممكنة"^(٣). وقد نال التشويه الأكبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم خصوصًا،

(١) انظر: جمال الوكيل، تطور استراتيجية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ١٢ و ٢٣-٢٤ و ٤٤-٤٥. وانظر: Sylvia Schein, The Image of the Crusader Kingdom of

Jerusalem in the Thirteenth Century, p. 706 and 711.

(2) See: Schein Sylvia, The Image of the Crusader Kingdom of Jerusalem in the Thirteenth Century, p. 709.

(3) John Tolan, Saracens: Islam in the medieval European imagination, p. 210.

حيث صورّه أمام الغربيين بصورة بشعة مزورة تنفر منها الأنفس، وكان فيدنتيوس يرى، كما يذكر الباحث جون تolan، أنّ هذه الأساطير المعادية المشوهة لصورة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفيدة، لأنّه كان يهتم بتأثير الصدمة أكثر من تصوير الحقيقة^(١). والثالثة: وتتمثل في إضعاف اقتصاد العالم الإسلامي ومقاطعته مقاطعةً تجاريةً تامّةً وفرض حصار بحري شامل عليه^(٢)، ولهذا عبّر عن سخطه الشديد تجاه المسيحيين الذين يتجاهلون الحرمان الكنسي ويدعمون المسلمين بالمال من خلال أدائهم الحج إلى الأراضي المقدّسة الخاضعة لسلطة المسلمين، واصفاً إيّاهم بـ "المسيحيين الفاسدين"^(٣). بعد هذا التمهيد يأتي العمل الرئيس والحاسم، وهو الإعداد لحملة صليبيّة تسارع فيها كل دول أوروبا لاحتلال الأراضي المقدّسة وغيرها من بلاد المسلمين^(٤). يقول جون تolan: "من بين العديد من الكتب والنصوص الداعية إلى الحملة الصليبيّة خلال تلك الفترة، لا يوجد ما هو أكثر حماسةً من كتاب فيدنتيوس البادوي (استرداد الأرض المقدّسة)، الذي ألف بين عامي ١٢٦٦م و١٢٩١م... ويخصّص معظم فصول مؤلفه (اثنان وسبعون فصلاً من أصل أربعة وتسعين) لاستراتيجية حملة الاسترداد: كيفية التخطيط، والتنفيذ، وضمان السيطرة على الأرض المقدّسة"^(٥).

المشروع الثاني: وهو مشروع رجل الدين الكاثوليكي والراهب الفرنسيكاني، رامون لول (١٢٣٢م-١٣١٦م)، الذي كان نشطاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. ففي مؤلّفه (كتاب النهاية Liber de Fine)، الذي بناه على خبرته الواسعة بالعالم الإسلامي وزيارته ومشاهداته الشخصيّة، قدّم اقتراحاً مهماً إلى المؤسسة البابويّة، وأهداه كذلك إلى ملك فرنسا، الملك فيليب الرابع (١٣١٤م)، يشتمل على شيّتين أساسيتين، وهما: الأول: توحيد ودمج الجماعات العسكرية المقاتلة، مثل: فرسان الهيكل أو فرسان المعبد^(٦)، وفرسان الإسمتارية

(1) See: John Tolan, Saracens: Islam in the medieval European imagination, p. 210.

(٢) انظر: جمال الوكيل، تطور استراتيجية الحروب الصليبيّة في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ١٢ و٢٣-٢٤ و٤٤-٤٥.

(3) See: Sylvia Schein, The Image of the Crusader Kingdom of Jerusalem in the Thirteenth Century, p. 708, John Tolan, Saracens: Islam in the medieval European imagination, p. 209.

(٤) انظر: جمال الوكيل، تطور استراتيجية الحروب الصليبيّة في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ١٢ و٢٣-٢٤ و٤٤-٤٥.

(5) John Tolan, Saracens: Islam in the medieval European imagination, p. 209.

(٦) انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبيّة: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، الجزء ٢، ص: ٣٩٦، جمال الوكيل، تطور استراتيجية الحروب الصليبيّة في القرن الرابع

أو فرسان القديس يوحنا، فرسان التيوتون الألمان، من أجل إعداد لحملة صليبية لانتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين^(١). أما الشق الثاني، فهو: إنشاء مدارس لدراسة اللغات الشرقية، تمكنهم من معرفة لغة وعلوم المسلمين، من أجل تنصيرهم أو تشكيكهم بدينهم، ولم ينس أيضًا ضرورة المقاطعة التجارية والحصار الاقتصادي لبلاد المسلمين^(٢).

المشروع الثالث: وهو مشروع الإيطالي ثاديوس نابولي Thaddeus Neapolitanus، الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، وقَدَّمَ مشروعه باسم (تاريخ خراب مدينة عكا) (Historia de desolatione civitatis Acconensis)، إلى البابا نيقولا الرابع (١٢٩٢م)، في نهاية عام ١٢٩١م، وهو عبارة عن تقرير عاطفي مؤثر كتبه بُعيد سقوط مدينة عكا، آخر معقل للصليبيين في بلاد الشام، عن ما حدث للمسيحيين بعكا، وأخذ يصف المسلمين بأبشع الصفات والألفاظ، مثل وصفهم بالشياطين، والوحوش الشريرة، والمنحرفين الفاسدين، والمجانين السفاحين^(٣)، من أجل أن يستفز مشاعر الملوك المسيحيين من أجل استعادة احتلال بلاد الشام والأراضي المقدسة، والتوقف عن الصراع المسيحي المسيحي وتوحيد قوتهم ضد المسلمين، وكان هذا التقرير أول دعوة لحرب صليبية بعد سقوط عكا^(٤). وفي هذا التقرير أكد ثاديوس نابولي أن سقوط عكا كانت عقوبة إلهية عادلة على المسيحيين لمعاصيهم وأثامهم، وأنهم لن يرجعوا حتى يرجعوا دينهم ويتوبوا من معاصيهم^(٥).

المشروع الرابع: وهو مشروع تشارلز الثاني ملك نابولي Charles II of Anjou (١٢٥٤م-١٣٠٩م)، الذي كان ينشط بكثافة في أواخر القرن الثالث عشر

عشر الميلادي، ص: ١٢ و ٢٥-٢٧ و ٤٨-٤٩. وكانت هذا الجماعة جماعة دموية ومتطرفة، وهي كما يصفها المؤرخ الغربي جيمس واترسون: "أكثر أعداء المسلمين عنادًا وقسوة". انظر: جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ص: ٢٣٥.

(1) See: Pierre Dubois, The Recovery of the Holy Land, p. 57, Sylvia Schein, The Image of the Crusader Kingdom of Jerusalem in the Thirteenth Century, p. 706.

(2) See: Constantinos Georgiou, Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean, p. 33.

وانظر أيضًا: جمال الوكيل، تطور استراتيجيّة الحروب الصليبيّة في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ٤٨-٤٩.

(3) See: Iris Shagrir, The Fall of Acre as a Spiritual Crisis: The Letters of Riccoldo of Monte Croce, p.1116-1117.

(٤) انظر: جمال الوكيل، تطور استراتيجيّة الحروب الصليبيّة في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ٤٥-٤٦.

(5) See: Schein Sylvia, The Image of the Crusader Kingdom of Jerusalem in the Thirteenth Century, p. 715, Iris Shagrir, The Fall of Acre as a Spiritual Crisis: The Letters of Riccoldo of Monte Croce, p. 1117.

الميلادي. أعدَّ مُخَطَّطاً انتهى منه خلال فترة شغور الكرسي الرسولي عقب وفاة البابا نيقولا الرابع Nicolaus IV سنة ١٢٩٢م وانتخاب البابا سيلبستين الخامس Celestine V سنة ١٢٩٤م^(١). وكان مشروعه عبارة عن كتاب بعنوان (النصائح) (Le Conseil)، أعدَّه بناءً على طلب البابا نيقولا الرابع، وكان التركيز فيه على الاستراتيجية الاقتصادية، وأنَّ أفضل حرب ضد المسلمين هي الحرب التجارية، من أجل شل حركتهم المالية ومحاصرتهم وإضعاف دولهم اقتصادياً، وفرض العقوبات الاقتصادية على من يتعامل معهم تجارياً^(٢). وقد وضع خطة تفصيلية ومتكاملة من أجل شن حرب تجارية على مصر خصوصاً، وذلك من خلال توحيد تنظيمات الرهبانيات العسكرية، وتشكيل أسطول مشترك، وإنشاء جيش دائم يُكلف بهذه المهمة، ويتم تمويل هذه القوة من جمع العشور والتبرعات من مختلف أنحاء العالم المسيحي^(٣).

يتضح من خلال ما سبق عرضه، أنَّ المؤسسة البابوية في القرن الثالث عشر الميلادي قد تبنت نهجاً استراتيجياً منظماً في مواجهتها للإسلام، يركز على دراسات وتقارير ومقترحات منهجية، تجاوزت البعد العسكري التقليدي لتشمل أبعاداً فكرية، عقائدية، اقتصادية، وتنظيمية. فقد دعت بعض المشاريع إلى ضرورة إصلاح الداخل المسيحي وتوحيد صفوفه كمدخل رئيس لتحقيق النصر، فيما ركزت أخرى على تشويه صورة الإسلام لتبرير الحملات العسكرية ضده، بينما أولت بعض التصورات أهمية كبرى للحصار الاقتصادي والمقاطعة التجارية باعتبارها سلاحاً فعالاً لإضعاف المسلمين. كما برزت مشاريع سعت إلى دمج القوى العسكرية المسيحية المختلفة ضمن تنظيم موحد، وأخرى اقترحت تأسيس مؤسسات تعليمية متخصصة لدراسة اللغة والثقافة الإسلامية بغرض التنصير أو الجدل العقائدي. وقد أجمعت هذه المشاريع في مجملها على أنَّ المواجهة مع الإسلام تتطلب تخطيطاً طويل الأمد، وتكاملاً بين الجهد العسكري والديني والفكري والاقتصادي، مما يعكس انتقال الكنيسة الكاثوليكية من ردود الأفعال المتفرقة إلى تبني رؤية استراتيجية شاملة ومركبة لمواجهة الإسلام وتحجيم نفوذه.

(1) See: Schein Sylvia, The Image of the Crusader Kingdom of Jerusalem in the Thirteenth Century, p. 706.

(٢) انظر: جمال الوكيل، تطور استراتيجية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي، ص: ٤٦.

(3) See: Pierre Dubois, The Recovery of the Holy Land, p. 202, footnote: 8.

الخاتمة

تناول هذا البحث بالدراسة والتحليل الاستراتيجية التي اعتمدتها المؤسسة البابوية في تعاملها مع الإسلام خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وهي مرحلة محورية في تاريخ العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي. وقد سعى إلى بيان هذه الاستراتيجية تفكيكها، من خلال التمييز بين مسارين متكاملين: أحدهما يعتمد على القوة الخشنة من خلال الحروب الصليبية، وحملات الاسترداد، والتحالفات العسكرية، والآخر يتجه إلى القوة الناعمة عبر التبشير والتبشير والمناظرات الدينية، وتأسيس المعاهد المتخصصة في اللغة العربية والدراسات الإسلامية.

وقد بين البحث أنّ القرن الثالث عشر الميلادي كان قرناً بالغ التوتر والتعقيد، حيث اجتمعت فيه عوامل الاضطراب الكبرى في الشرق والغرب، وشهد تراجعاً في القوة السياسية الإسلامية نتيجة الغزو المغولي من جهة، والحملات الصليبية وحروب الاسترداد من جهة أخرى. واستثمرت المؤسسة البابوية هذه الظروف لتكثيف مشروعها الديني والسياسي في تعاملها مع الإسلام، مدفوعة برؤية دينية تعتبر الإسلام خطراً عقدياً وجغرافياً، ما جعل الاستراتيجية البابوية ذات طابع شمولي يتوجه إلى العالم الإسلامي ككل عقائدياً وعسكرياً في آن.

كما اتضح أنّ المؤسسة البابوية لم تتعامل مع الإسلام كظاهرة دينية فقط، بل نظرت إليه كخمس حضاري وسياسي يجب التصدي له، ليس من خلال المواجهة العسكرية فقط، وإنما أيضاً من خلال السيطرة المعرفية، وتشكيل خطاب ديني وفكري مضاد يعمل على إضعاف حضور الإسلام وتقويضه في وعي الشعوب الأوروبية. ولهذا تميزت تلك الاستراتيجية بالدمج بين الوسائل المباشرة وغير المباشرة، في محاولة لبناء نفوذ طويل الأمد. وفي ضوء هذا التحليل، يتضح أنّ المشروع البابوي تجاه الإسلام لم يكن عفويّاً أو ارتجاليّاً، بل كان جزءاً من رؤية متماسكة، تتداخل فيها الدوافع الدينية مع الأهداف الجيوسياسية. وقد هدفت هذه الاستراتيجية إلى ضمان تفوق الكنيسة الكاثوليكية، واحتواء كل ما يمكن أن يهدد هيمنتها، سواء في الفكر أو في السياسة، وهو ما يجعل هذه المرحلة جديرة بالدراسة المتعمقة بوصفها لحظة مفصلية في تشكيل صورة الإسلام في الخيال الغربي.

وقد توصل البحث إلى أنّ المؤسسة البابوية في القرن الثالث عشر الميلادي لم تكتف بالمواقف الرمزية أو الدعائية في تعاملها مع الإسلام، بل انتهجت مساراً

استراتيجيًا متكاملًا هدفه احتواء الإسلام، وتقويض حضوره، ومواجهة انتشاره، وذلك عبر أدوات متعددة تنتمي إلى كل من القوة الصلبة والناعمة. وقد أظهرت هذه السياسة وعيًا لاهوتيًا وسياسيًا معقدًا بحجم التحدي الذي مثله الإسلام، كما عكست تحولات عميقة في رؤية الكنيسة لدورها في العالم. كما بيّن البحث أن التوجّه البابوي كان يمزج بين البعد الديني والبعد السياسي، حيث استخدم الدين وسيلة لتعبئة الجموع وتحقيق أهداف جيوسياسية، وهو ما جعل المؤسسة البابوية تتصرف بوصفها فاعلاً دوليًا وليس فقط دينيًا، مما يفسر اندفاعها نحو التحالفات، وتدخلها في شؤون الملوك، وتوجيهها للحملات العسكرية في الشرق الإسلامي. وأظهرت الدراسة أنّ استمرارية بعض المفاهيم والمواقف تجاه الإسلام في الخطاب الكنسي الغربي المعاصر تفهم بشكل أعمق من خلال تحليل هذه المرحلة التاريخية، فالصورة المشوّهة والمشوبة بالتوجس والعداء التي تكوّنت في تلك الحقبة لا تزال تلقي بظلالها على مواقف بعض الاتجاهات الغربية، وإنّ تغيّرت أدوات التعبير عنها.

وأخيرًا، أكّد البحث أنّ تجاوز إرث العصور الوسطى لا يمكن أن يتم بغير مراجعة جادة للمضامين اللاهوتية والخطابية التي تأسس عليها هذا الموقف تجاه الإسلام، كما لا يمكن فصل الحاضر عن جذوره التاريخية إذا أريدَ لحوار الأديان أن يكون صادقًا ومثمرًا، لا شكليًا أو تجميليًا. وفي ضوء ما توصّل إليه البحث من نتائج، يُوصي الباحث بما يأتي: ضرورة تعزيز الدراسات التاريخية النقدية التي تتناول العلاقة بين الإسلام والكنيسة الكاثوليكية بعيدًا عن الرؤية الانفعالية أو التبريرية، مع التركيز على البنى المؤسسية التي أدارت الصراع وليس فقط الأفراد أو الأحداث. والدعوة إلى مراجعة جادة في الخطاب الديني الغربي تجاه الإسلام، انطلاقًا من المسؤولية الأخلاقية والمعرفية في الوعي بأخطاء الماضي وعلاجها، وبناء أرضية مشتركة قائمة على الفهم والاحترام المتبادل.

تُبَيِّنُ المصادر والمراجع باللغة العربية:

- أولاً: قائمة المصادر والمراجع المطبوعة بالعربي:
- الكتب:
- أرنست غيلنر، ما بعد الحداثة والعقل والدين، ترجمة: معين الإمام، (بغداد: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠١م).
- (١٩٨٨).
- آن دوبرا وإيميلي بيشرو، مرآة الشرق: عرب وعثمانيون في الأدب الأوروبي خلال القرون الوسطى، ترجمة: محمد عبد الفتاح السباعي، (القاهرة: دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠١٥م).
- بيرتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، (دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٢م).
- جان دي جاك وارندبرغ، المستشرقون، ترجمة: أنيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٤م).
- جمال الوكيل، تطور استراتيجية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي: مشروع حملة مارينو سانودو-دراسة تاريخية، (القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١٧م).
- جيمس واترسون، سيوف مقدسة: الجهاد في الأراضي المقدسة، ترجمة: يعقوب عبد الرحمن، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٦م).
- رنيه غروسليه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، ترجمة: أحمد إيبش، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٤م).
- زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ترجمة: غريب محمد غريب، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٥م).
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠م).
- عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، (الرياض: بدون معلومات دار الطباعة، ١٩٩٤م).
- عدنان خلف الدراجي، التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية: خلال عصر سلطنة غرناطة (١٢٣٨م-١٤٩٢م)، (القاهرة: دار حميرا للنشر والتوزيع، ٢٠١٨م).
- علي بن إبراهيم النملة، المستشرقون والتتصير: دراسة للعلاقة بين ظاهرتين، مع نماذج من المستشرقين المنصرين، (الرياض: مكتبة التوبة، ١٩٩٨م).

- كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، ترجمة: عبد الوهاب المسيري وهدى حجازي، مراجعة: فؤاد زكريا، (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٨٥م).
- الكتاب المقدس (نسخة الرهبانيّة اليسوعيّة)، (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٤).
- كولن ويلسون، سقوط الحضارة، ترجمة: أنيس زكي حسن، (بيروت: منشورات دار الآداب، ١٩٧١م).
- ليونيل جان شيني، تاريخ العالم الغربي، ترجمة: مجد الدين حفني ناصف، مراجعة: علي أدهم، (القاهرة: آفاق للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م).
- مجموعة علماء سوفيت، المعجم العلمي للمعتقدات الدينيّة، ترجمة: سعد الفيشاوي، (القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ٢٠٠٧م).
- محمد أسد (ليوبولد فايس)، هذه شريعتنا ومقالات أخرى، ترجمة: شكري مجاهد، (الدوحة: منتدى العلاقات العربيّة والدوليّة، ٢٠١٥م).
- محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي: نقد العقل التاريخي، (الرباط: المجلس القومي للثقافة العربيّة، ١٩٩١م).
- محمود حمدي زقزوق، الإسلام في تصورات الغرب، (موسوعة الأعمال الكاملة: المجلد الأول)، (القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ٢٠١٤م).
- محمود حمدي زقزوق، الدّينُ للحياة، (موسوعة الأعمال الكاملة: المجلد الخامس)، (القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ٢٠١٤م).
- مصطفى حسن محمد الكفاني، حملة لويس التاسع الصليبيّة على تونس (١٢٧٠م/٦٦٩-٦٦٨هـ)، (الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٥م).
- مؤسسة الكاردينال بول بوبار، معجم الأديان، ترجمة: مركز الدراسات والأبحاث المشرقيّة في لبنان بإشراف الأب الدكتور بولس فغالي، مراجعة: لجنة الترجمة في القدس برئاسة البطريرك ميشيل صباح، (لبنان: المطبعة البولسيّة، ٢٠١٦م).
- نور الدين خليل، قاموس الأديان الكبرى الثلاثة: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، (الاسكندرية: مؤسسة حورس الدوليّة، ٢٠٠٨م).
- هيربرت جورج ويلز، معالم تاريخ الإنسان، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٨م).
- ويليام بولك، الصليبيّة والجهاد، ترجمة: عامر شيخوني، (الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ٢٠١٩م).
- يان دوبراتشينسكي، أوروبا والمسيحيّة، ترجمة: كبرو لحدو، (دمشق: دار الحصاد للطباعة والنشر، ٢٠١٨م).
- الأبحاث والمقالات في المجالات والدوريات العربيّة:

- أليكسي جورافسكي، الممهدات الفكرية للحوار الإسلامي المسيحي، (بيروت: دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، مجلة الاجتهاد، مجلد: ٨، عدد: ٣١٣٢، ١٩٩٦م).
- بوعامة فاطمة، موقف الصليبيين من اليهود في العصور الوسطى، (الجزائر: دورية الباحث، العدد: ٦، ٢٠١٢م).
- جورج جبور، مع اقتراب الذكرى الـ ٩٠٠ لشن حروب الفرنجة على العرب: هل ينبغي على الفاتيكان أن يقدم شرحاً اعتذارياً لأحفاد ضحايا هذه الحروب؟، (دمشق: بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسرطان والأرثوذكس، المجلة البطريركية، سنة: ٣٢، عدد: ١٣١-١٣٢، ١٩٩٤م).
- جورج قنوت، الثقافة في الحوار الإسلامي المسيحي، ترجمة: نورا أمين، (حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي: مجلة أدب ونقد، عدد: ١١٣، يناير ١٩٩٥م).
- جورج مستوح، جورج خضر والحوار الإسلامي-المسيحي: مقارنة لاهوتية، (بيروت: دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، مجلة الاجتهاد، مجلد: ٨، عدد: ٣١٣٢، ١٩٩٦م).
- جوهان جيزل، اعترافات عربي كاثوليكي: دراسة وتحليل، (دمشق: بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسرطان والأرثوذكس، المجلة البطريركية، سنة: ٣٢، عدد: ١٣١-١٣٢، ١٩٩٤م).
- دعاء محمود فينو، الحوار المسيحي الإسلامي قراءة في كتاب: التصورات اللاهوتية المسيحية عن المسلمين منذ مجلس الفاتيكان الثاني، تأليف محمود إيدن، (الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة)، سنة: ١١، عدد: ٤٤، ٢٠٠٦م).
- عبد العزيز شهير، اللقاء الإسلامي-المسيحي: المناظرات الموريسكية-المسيحية، (أكاديمية المملكة المغربية: دورية الأكاديمية، عدد: ١٥، ١٩٩٨م).
- محمد مؤنس عوض، البابا أوربان الثاني (١٠٩٩م) والفقيه علي بن طاهر السلمي (١١٠٦م): دراسة مقارنة من عصر الحروب الصليبية، (مصر: جامعة عين شمس، مجلة بحوث الشرق الأوسط، عدد: ٣٨، ٢٠١٦م).
- محمد وليد المصري، دولة الفاتيكان ودورها في الحوار الإسلامي المسيحي، (علوم الشريعة والقانون، مجلد: دراسات، مجلد: ٣٠، عدد: ١، ٢٠٠٣م).
- نقولا زيادة وآخرين، صورة الإسلام في الخطاب الاستشراقي، (مجلة المنهاج: العدد التاسع عشر، السنة الخامسة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- يونس عباس نعمة، أثر المؤسسة الدينية المسيحية في قيام الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) ومسؤوليتها في تبني الصورة السلبية عن الإسلام، (جامعة بابل: كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد: ٢٧، العدد: الأول، آذار ٢٠٢٠م).

ثانيًا: قائمة المصادر والمراجع المطبوعة بالإنجليزي:

Anna Sapir Abulafia, *Religious Violence between Christians and Jews: Medieval Roots, Modern Perspectives*, (New York, Palgrave Publishers Ltd, 2002).

Asaf Hussain, *The ideology of orientalism, (Orientalism, Islam, and Islamists*, Edited by Asaf Hussain, Robert Olson, Jam il Qureshi), (Bratdeboro: Amana Books, 1984).

Carol Lansing and Edward English, *A Companion to the Medieval World*, (United Kingdom: Wiley–Blackwell, 2009).

Charles Taliaferro and Elsa J. Marty, *A Dictionary of Philosophy of Religion*, (New York: Te Continuum International Publishing Group, 2010).

Christoph T. Maier, *Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross* (New York: Cambridge University Press, 2000).

Christopher Thomas Anglim, *Encyclopedia of Religion and the Law in America*, (New York: Grey House Publishing, Inc., 2009).

Constantinos Georgiou, *Preaching the Crusades to the Eastern Mediterranean: Propaganda, Liturgy and Diplomacy, 1305–1352*, (New York: Routledge, 2018).

David Abulafia, *Frederick II: A Medieval Emperor*, (New York, Oxford University Press, 1992).

David Abulafia, *Italy in the Central Middle Ages*, (New York, Oxford University Press, 2004).

David Abulafia, *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean*, (New York: Oxford University Press, 2011).

David Morgan, *The Mongols*, (Oxford, U.K; New York: Blackwell, 1986).

Ergun Mehmet Caner and Emir Fethi Caner, *Christian Jihad*, (Grand Rapids: Kregel Publications, 2004)

F. L. Cross, E. A. Livingstone, *The Oxford Dictionary of the Christian Church*, (Oxford: Oxford University Press, 1997).

Geoffrey Parrinder, *The Routledge Dictionary of Religious and Spiritual Quotations*, (London and New York: Routledge, 2000).

International Congress: *Christian Humanism in the Third Millennium: The Perspective of Thomas Aquinas*, (Rome: PAST & SITA, 2003).

James Dennis, *Christian Missions and Social Progress: A Sociological Study of Foreign Missions*, (Edinburgh and London: Oliphant Anderson and Ferrier, 1899).

John Hugh Hill & Laurita Lyttleton, *Raymond IV, Count of Toulouse*, (New York: Syracuse University Press, 1962).

John Tolan, *Saracens: Islam in the medieval European imagination*, (New York: Columbia University Press, 2002).

Kocku von Stuckrad, *The Brill Dictionary of Religion*, (Leiden: Brill, 2006).

Michael Lower, *Tunis in 1270: A Case Study of Interfaith Relations in the Late Thirteenth Century*, (*The International History Review*, 504–514, 2006).

Michael Pye, *MacMillan Dictionary of Religion*, (London: The Macmillan Press Ltd, 1994).

Nicky Gumbel, *Is God a Delusion? What is the Evidence?* (London: Alpha International, 2008).

Pierre Dubois, *The Recovery of the Holy Land*, Translated with an Introduction and Notes by Walther Brandt, (New York: Columbia University Press, 1956).

Robert Royalty, *The Origin of Heresy: A History of Discourse in Second Temple Judaism and Early Christianity*, (New York: Routledge, 2013).

Samuel Marinus Zwemer, *Raymund Lull: First Missionary to the Moslems*, (London: Funk & Wagnalls Company, 1902).

Samuel Zwemer, *Arabia: The Cradle of Islam*, (New York: Fleming H. Revell Company, 1900).

Valentin Portnykh, *An Unknown Short Version of the Treatise De predicatione sancte crucis by Humbert of Romans*, (*Studi medievali*, Ser. 3, vol. 56), (Spoleto: Centro Italiano di Studi, 2005).

الأبحاث في المجلات والدوريات باللغة الإنجليزية:

Iris Shagrir, *The Fall of Acre as a Spiritual Crisis: The Letters of Riccoldo of Monte Croce*, (*Revue belge de philologie et d'histoire*, tome 90, fasc. 4, 2012).

Paul E. Chevedden, *The Islamic View and the Christian View of the Crusades: A New Synthesis*, (Oxford: History, Blackwell Publishing Ltd, Vol. 93 Issue 2, 2008).

Schein Sylvia, *The Image of the Crusader Kingdom of Jerusalem in the Thirteenth Century*, (*Revue belge de philologie et d'histoire*. Tome 64 fasc. 4, 1986).

ثَبَّتَ المصادر والمراجع باللغة الإنجليزية اللاتينية:

- thabt almasadir walmarajie biallughat al'injlyzyt allatynynt:
- awlaan: qayimat almasadir walmarajie almatbueat bialearabii:
 - alkitab:
 - 'arnist ghilinar, ma baed alhadathat waleaql walidiyni, tarjamatu: mueayn al'iimama, (baghdad: dar almadaa lilthaqafat walnashri, 2001ma.).
 - an dubra wa'iimili bishru, murat alsharqa: earab waeuthmaniuwn fi al'adab al'uwrubiyi khilal alqurun alwustaa, tarjamatu: muhamad eabd alfataah alsabaeia, (alqahirata: dar safsafat lilmashr waltawzie waldirasati, 2015mi.)
 - birtuld shubulir, alealam al'iislamii fi aleasr almaghuli, tarjamatu: khalid 'asead eisaa, (dimashqa: dar hasaan liltibaeat walnashri, 1982ma.)
 - jan di jak wardinbirghi, almustashriquna, tarjamatu: 'anis eabd alkhalig mahmud, (birut: almuasasat alerbyat lildirasat walnashri, 2014ma.)
 - jamal alwakil, tatawur astratyjyat alhurub alslybyat fi alqarn alraabie eashar almiladii: mashrue hamlat marinu sanudu-dirasat tarykhyat, (alqahirata: dar alealam alearabii, 2017mu.)
 - jims watrsun, siuf muqadasatu: aljihad fi al'aradi almuqadasati, tarjamatu: yaequb eabd alrahman, (alqahirat: almarkaz alqawmiu liltarjamati, 2006mi.)
 - rnih ghrwssyh, mujaz tarikh alhurub alslybyat fi almashriq al'iislamii washarqii hawd almutawasiti, tarjamatu: 'ahmad 'iibish, ('abu zabi: hayyat 'abu zabi lilsiyahat walthaqafati, 2014ma.)
 - zijirid hunkihi, allah lays kadhalika, tarjamatu: gharib muhamad ghuribi, (alqahirati: dar alshuruq, 1995mi.)
 - saeid eabd alfataah eashur, alharakat alslybyat: safhat mushriqat fi tarikh aljihad al'iislamii fi aleusur alwustaa, (alqahirati: maktabat al'anjilu almisriati, 2010ma.)
 - eabd allh bin eabd alrahman alrubiei, 'athar alsharq al'iislamii fi alfikr al'uwrubiyi khilal alhurub alslybyat, (alriyad: bidun maelumat dar altibaeati, 1994ma.)
 - eadnan khalf aldaraji, altaathir alhadariu almutabadal bayn al'andalus al'iislati wa'iisbania alnasraniati: khilal easr saltanat gharnata (1238ma-1492mi), (alqahirata: dar hamithra lilmashr waltawziei, 2018mi.)
 - eali bin 'iibrahim alnumlatu, almustashriqun waltansira: dirasat lilealaqat bayn zahiratayni, mae namadhij min almustashriqin almunasirayni, (alriyad: maktabat altawbati, 1998mi.)
 - kafin rayli, algharb walealamu: tarikh alhadarat min khilal mawdueatin, tarjamati: eabd alwahaab almisayri wahudaa hijazi, murajaeata: fuad zakaria, (alkuayt: ealim almaerifati, 1985ma.)
 - alkitaab almuqadas (nuskhat alrhhbanyat alysweya), (birut: dar almashriqa, 1994.)

-
- kulin wilsun, suqut alhadarati, tarjamatu: 'anis zaki hasan, (birut: manshurat dar aladab, 1971mi.)
 - lyunil jan shini, tarikh alealam algharbiu, tarjamatu: majd aldiyn hifni nasif, murajaeati: eali 'adham, (alqahirati: afaq lilnashr waltawzie, 2019mi.)
 - majmueat eulama' sufyt, almuejam aleilmiu lilmuetaqadat aldynyat, tarjamatu: saed alfishawi, (alqahirati: alhayyat almsryat aleamat lilkitabi, 2007mi.)
 - muhamad 'asad (lyubuld fayis), hadhih sharieatina: wamaqalat 'ukhra, tarjamatu: shukri mujahid, (aldawhat: muntadaa alealaqat alerbyat waldwlyat, 2015ma.)
 - muhamad yasin eariby, aliastishraq wataghrib aleaql altaarikhii alearabi: naqd aleaql altaarikhii, (alribati: almajlis alqawmiu lilthaqafat alearabiati, 1991mu.)
 - mahmud hamdi zaqzuqi, al'iislam fi tasawurat algharba, (musueat al'aemal alkamilati: almujalad al'uwli), (alqahirata: dar alkitaab almisrii, bayrut: dar alkitaab allubnani, 2014mu.)
 - mahmud hamdi zaqzuqi, alddin llhayati, (musueat al'aemal alkamilatu: almujalad alkhamis), (alqahirati: dar alkitaab almisrii, bayrut: dar alkitaab allubnani, 2014mu.)
 - mistafaa hasan muhamad alkinani, hamlat luis altaasie alsalibiat ealaa tunus (1270 ma/668-669hi), (aliaskandiriati: munsha'at almaearifi, 1985ma.)
 - muasasat alkardinal bul bubar, muejam al'adyan, tarjamatu: markaz aldirasat wal'abhath almshrqyat fi lubnan bi'iishraf al'ab alduktur bulis fghali, murajaeata: lajnat altarjamat fi alquds biriasat albatrark mishil sbbah, (libnan: almatbaeat albwlsyat, 2016ma.)
 - nur aldiyn khalil, qamus al'adyan alkubraa althalathatu: alyhwdyat walmsyhyat wal'iislamu, (alaskndryat: muasasat hurs aldwlyat, 2008ma.)
 - hirbirt jurj wilzi, maealim tarikh al'insanyat, tarjamatu: eabd aleaziz twfiq jawid, (alqahirati: almarkaz alqawmia liltarjamati, 2018mi.)
 - wilyam bulk, alssalybyat waljihadi, tarjamatu: eamir shikhuni, (aldaar alearabiati lileulum nashiruna, 2019ma.)
 - yan dubratshinski, awrwba walmsyhyat, tarjamatu: kibru lihudu, (dimashqa: dar alhisad liltibaeat walnashri, 2018ma.)
 - al'abhath walmaqalat fi almajalaat waldawriat alerbyat:
 - 'aliksi jurafiski, almumahidat alfkryat lilhiwar al'iislami almasihii, (birut: dar aliajtihad lil'abhath waltarjamat walnashra, majalat aliajtihadi, mujalad: 8, eadadi: 3132, 1996ma.)
 - bueimamat fatimati, mawqif alsalibiiyn min alyahud fi aleusur alwusta, (aljazayar: dawriat albahithi, aleadadu: 6, 2012ma.)
 - jurj jbur, mae aqtirab aldhikraa al900 lishani hurub alfirinjat ealaa alearabi: hal yanbaghi ealaa alfatikan 'an yuqadim shrhaan aetdharyaan li'ahfad dahaya hadhih alhurub?, (dimashqa: btryrkyat 'antakiat wasayir almashriq lilsuryan wal'urthudhuksi, almajalat albtryrkyat, sanatan: 32, eadadi: 131-132, 1994ma.)

-
- jurj qanawati, althaqafat fi alhiwar al'iislamii almasihii, tarjamatu: nura 'amin, (hizb altajamue alwatanii altaqadumii alwahdawi: majalat 'adab wanuqdi, eadad: 113, yanayir 1995ma.)
 - jurj msswh, jurj khadr walhiwar al'iislamii-almasihii: mqarbt lahwtytun, (birut: dar aliajtihad lil'abhath waltarjamat walnashra, majalat aliaijtihad, mujalad: 8, eadadi: 3132, 1996ma.)
 - juhan jizil, aetirafat earabiun kathuliki: dirasat watahlili, (dimashqa: btryrkyat 'antakiat wasayir almashriq lilsuryan wal'urthudhuksi, almajalat albtryrkyat, sanata: 32, eadadi: 131-132, 1994ma.)
 - duea' mahmud finu, alhiwar almasihii al'iislamii qira'at fi kitabi: altasawurat allaahuti almasihiat ean almuslimin mundh majlis alfatikan althaani, talif mahmud 'iidin, (al'urdunu: almaehad alealamii lilfikir al'iislamii, majalat alfikr al'iislamii almueasir ('islamyat almaerifati), sanatan: 11, eadadi: 44, 2006ma.)
 - eabd aleaziz shahbar, alliqat al'iislami-almasihii: almunazirat almwryskyat-almshyhat, ('akadimi almalakat almaghribati: dawriat al'akadimiati, eadadi: 15, 1998ma.)
 - muhamad munis eawad, albaba 'uwrban althaani (1099m) walfaqih ealii bn tahir alsulami (1106ma): dirasat muqaranat min easr alhurub alslybyat, (masr: jamieat eayn shamsa, majalat buhuth alsharq al'awsat, eadadi: 38, 2016ma..)
 - muhamad walid almisri, dawlat alfatikan wadawruha fi alhiwar al'iislamii almasihii, (eulum alsharieat walqanuna, mujaladat dirasati, mujaladi: 30, eadadi: 1, 2003ma.)
 - nqula ziadat wakhrin, surat al'iislam fi alkhitaab aliastishraqii, (majalat alminhaji: aleadad altaasie eashra, alsanat alkhamisata, 1421h/2000ma.)
 - yunis eabaas niemat, 'athar almuasasat aldiyniat almsyhyat fi qiam alhamlat alslybyat al'uwlaa (1095-1099ma) wamaswuwliatuha fi tabaniy alsuwrat alslybyat ean al'iislami, (jamieat babli: kuliyat altarbiat lileulum al'iinsaniati, majalat aleulum al'iinsaniati, almuajaladi: 27, aleudadu: al'uwla, adhar 2020ma.)